نافذة على الغرب (١)

روجيه جارودي

الإسلام

والقرن الواحد والعشرون

شروط نهضة المسلمين



ترجمة
كمال جاد الله

الدار العالمية للكتب والنشر

الإسلام
والقرن الواحد والعشرون
شروط نهضة المسلمين

رقم الإيداع : ٤٧٢٦ / ٩٩

الإسلام
والقرن الواحد والعشرون
شروط نهضة المسلمين

تأليف : روجيه جارودى
ترجمة / كمال جاد الله

الدار العالمية للكتب والنشر



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما أستطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾

صدق الله العظيم

« سورة هود : ٨٨ »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد ارتسمت فى ذهنى صورة عظيمة للأمير عبد القادر غداة أول لقاء لى معه فى بيت الشيخ محمد بشير إبراهيم فى عام (١٩٤٤م) ، وكان ذلك بعد مقالتى حول « إسهام الحضارة العربية الإسلامية فى الثقافة العالمية » .

وقد استقبلنى الرجل فى بيته ، وكنت برفقة « عمار أوزجان » الذى أصبح فيما بعد وزير الزراعة فى الجزائر بعد التحرير ، وقد عشت معه ما يقرب من ثلاث سنوات فى السجن ، وفى معسكر الاعتقال .

لقد كان عبد القادر رمزاً ومثالاً فى نفس الوقت للحياة الدينية والعسكرية للشيخ إبراهيم ، وأوضح لنا فى ذلك اليوم تواصل الكفاح الذى قاده الشعب الجزائرى منذ سنة (١٩٣٠م) ضد التهديد بمحو الشخصية وفقد الهوية ، والذى تعرض له الشعب الجزائرى لما يزيد على قرن من الزمان من جراء الغزو الفرنسى، وكذلك تحريف الإسلام من قبل المرابطين الذين كانوا متحالفين مع المحتل ، لقد كان هذا الكفاح أيضاً ضد انحطاط الصوفية والتى كانت تعلم الناس

التخلص من الحياة اليومية عن طريق فكره استحواذية مرضية عن الحياة الآخرة ، وعن طريق تنسك مزيف « يؤكد على عدم الرغبة فى الحياة الأرضية » ، كما كتب الشيخ ابن باديس ، وقد استطاع الأمير عبد القادر أن يربط بين الإيمان والسياسة حسب أعلى المصادر الإسلامية ، واللحظة الصوفية عنده هى لحظة «تركيز التفكير فى الله»، لقد كانت مهمته كقائد حرب ورجل دولة هى أن يعرض إيمانه وروحانيته بشكل العالم حسب هداية الله .

لقد كان هذان هما قطب الحياة اللذان لا ينفصلان : الدين والسياسة .

أخذ كل من الشيخ إبراهيم والشيخ ابن باديس على عاتقهما مواصلة التجديد فى الجزائر متبعين فى ذلك الحركة الإصلاحية التى قادها فى مصر كل من الشيخ الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا الذى توفى فى عام (١٩٣٥م) .

وكانت هذه الحركة تجديدية من منظور دينى وسياسى وثقافى ، وفى معرض مدحه لتفسير القرآن على يد الشيخ محمد عبده شيخ الأزهر يضيف الشيخ إبراهيم قائلاً : « لقد فتح رشيد رضا الطريق أمام العلماء للتأويل القرآنى . . . ، وقد أمسك بزمام التأويل القرآنى من بعده فى العالم الإسلامى كله عبد الحميد بن باديس مؤسس النهضة الفكرية الإصلاحية فى الجزائر ، بل فى شمال أفريقيا » .

وكان الشيخ إبراهيم مع الشيخ ابن باديس العقل المدبر للثورة الفكرية فى الجزائر ، والتى أمكن بفضلها تحرير الشعب الجزائرى فى

عام (١٩٦٢م) بعد مائة وثلاثين عاماً من القهر ، واستعاد هويته العربية الإسلامية والتى ظل الشعب الجزائرى يناضل من أجلها بدءاً من المقاومة التى قادها عبد القادر وحتى كفاح الشيخ « بوعمار » و«المكرانى » ، وحتى ثورة (١٩٥٤م) ، والتى انتهت بنصر التحرير عام (١٩٦٢م) .

لقد كانت مهمة الإصلاحيين جسيمة .

ويذكر الشيخ إبراهيم أنه فى عام (١٩١٣م) فى المدينة المنورة وخلال سهراته مع الشيخ ابن باديس ، والتى لم تكن تنتهى إلا مع صلاة الصبح ، بدأ الشيخ ابن باديس فى طرح فكرة « جماعة العلماء» ، والتى لم تر النور إلا فى سنة (١٩٣١م) ، وقد رفضا أفكار « زياجوقلب » التركى ، والتى طبقها بعد ذلك بسنوات مصطفى كمال الذى خلط بين «التحديث » و« التغريب » ، ولذلك فقد فرغ الإسلام من مضمونه حين قلد الغرب بطريقة آلية وكذلك رفضا « التقليد الأعمى » لأولئك الذين يتقهقرون عن الدخول إلى المستقبل ، ولا يقرأون القرآن إلا بأعين الموتى، وكان البرنامج الرسمى للزيتونة حتى عام (١٩١٢م) مقتصراً على تفسير البيضاوى (ت عام ١٣١٦) ، والجلالين (ت أولهما عام ١٤٥٩م) .

ومهما وصل الأمر من احترام وتقدير لهذين المفسرين العظيمين ، فإنه من الخطر أن نعتقد أن الفكر الإسلامى الخلاق قد توقف عند هؤلاء ، وأن مفهوم العصور الوسطى يمكن أن يحل مشكلات عصرنا، والأكثر من ذلك أن « الهيكل التنظيمى » لجامعة الزيتونة

يقدس هذا الاعتقاد ، حيث يعلن صراحة أنه « لا يمكن أن نناقش المبادئ التى نقلها العلماء عبر العصور ؛ لأنها هى العلم » .

لقد كان على الشيخ إبراهيم والشيخ ابن باديس أن يحاربا هذه الكارثة المزدوجة : التقليد الأعمى للغرب والتقليد الأعمى للماضى .

وقد كتب الشيخ إبراهيم أن الخطأ الجسيم لأولئك الذين يتبنون الثقافة الغربية هو « الجهل التام بحقائق الإسلام ، وأن الخطأ الجسيم لأولئك الذين يتشدقون بالثقافة الإسلامية هو الجهل التام بمشاكل ومتطلبات العصر » .

وفى المفهوم الإسلامى حيث لا ينفصل الإيمان عن قوانين الوحدة، أى السياسة ، فإن المعضلة الكبرى كانت فى اكتشاف كيف يمكن للإسلام أن «يحدث نفسه » دون أن يتغير ، أى دون اللجوء إلى تقليد الغرب .

لقد كان الحل الذى نادى به الشيخ ابن باديس والشيخ إبراهيم هو: اتباع الطريق الذى فتحه فى مصر الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا، ولكن بشروط الجزائر الخصوصية ، حيث كانت تواجه الاستعمار ، وهو استعمار عسكرى وسياسى وروحى أيضاً ، وكان الحل هو البحث عن النشاط الخلاق للإسلام المبكر ، وذلك من خلال الوحى القرآنى والأسوة الحسنة للنبى محمد ﷺ .

وحتى يصلا إلى هذا الهدف كان يجب تنقية الشوائب التى تراكمت خلال ألف سنة من الطقوسية والشرعوية « تقديس الشرع » الضيقة والحرفية وإعادة قراءة القرآن والسُّنَّة .

وهذا المشروع لم يتعرض أبداً للأصل الإلهى للقرآن الكريم ، ولا لعظمة السُّنَّة النبوية الشريفة ، بل على العكس فقد اعتبرهما المصدر الحى للتشريع .

هذا الاجتهاد هو كما كتب محمد إقبال « أساس الحركة » التى تتضح فيها قوة الإسلام الخلاقة ، وكما قال رشيد رضا فى فتح جرىء لباب الاجتهاد : « إن هذا الاجتهاد يتوقف عليه مستقبل انتشار الإسلام » .

حقاً لقد بدأت الأزمات الأولى للإمبراطورية العباسية تظهر فى شكل تراجع صاعق اشتدت وطأته مع الإمام أحمد بن حنبل ، والتى وضعت نهاية للانتشار الإسلامى الأول الذى كان لامعاً ، وكانت قاصمة الظهر بعد ذلك بثلاثة قرون مع زلازل الغزو المغولى والحروب الصليبية .

وبدأ العلماء يضعون النظريات ابتداءً من الماوردى من خلال دراسة الكتب حول الإمبراطورية العباسية الآخذة فى الأفول .

ومن هنا تكمن الفائدة العظمى للأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وابن باديس والشيخ إبراهيم فى أنهم تخطوا النظريات الفقهية والشروح والجدل الفقهى العقيم المتراكم عبر العصور حتى يصلوا إلى المصدر الحى للتشريع ، وهو الوحى القرآنى والأسوة الحسنة فى الرسول ﷺ ، ويأتوا بنظريات مثلما فعل الفقهاء العظام ، حيث عملوا فى الظروف التاريخية الجديدة للوصول إلى المقاصد الأزلية التى حددها القرآن الكريم .

إن الشريعة لا يمكن أن تتحجر مثلها فى ذلك مثل الحياة التى من شأنها أن تتكيف حسب ما يريده الله الذى جعل الإنسان خليفته ، ولذلك فهى فى تحول مستمر .

وفى معرض حديثه عن حركة التجديد عند رشيد رضا والشيخ إبراهيم وابن باديس كتب محمد إقبال : « لقد وجدت أن زعم الجيل الحالى من الإصلاحيين المسلمين بشأن إعادة تفسير المبادئ الفقهية الأساسية فى ضوء تجربتهم الشخصية وظروف الحياة العصرية المختلفة زعم مبرر تماماً ، لقد علمنا القرآن أن الحياة عملية من التطور المستمر مما يعنى أن كل جيل يهتدى بالأجيال السابقة ، ولكن ذلك لا يعوقه أن يكون له الحق فى حل مشاكله » .

ولأنهم لم يقتنعوا بالتكرير الحرفى للقواعد والمقررات التى اتخذت فى ظروف تاريخية معينة ، ولكنهم رأوا فيها روح الهداية الإلهية حتى يصلوا إلى نفس الهدف فى ظل الظروف التاريخية الجديدة . ، وقد علم كل من الشيخ ابن باديس فى قسطنطينة والشيخ العقبى فى الجزائر والشيخ إبراهيم فى حوران وتلمسان علموا جيلاً وجد بعد ذلك فى الإسلام الحى القوة الأساسية للحركة التحررية للشعب الجزائرى .

ويمكن فقط فى ضوء الإسلام أن نطرح المشكلة بكل أبعادها : فالثورة الجزائرية لم يكن فى الإمكان أن يكون هدفها ببساطة أن تحل محل النظام المستعمر فى السلطة بواسطة جزائريين يمارسون السلطة حسب نفس القوانين ، لذلك كان يجب خلق تجمع جديد قائم على

قِيَم مختلفة تماماً عن تلك التى فرضها المستعمر طيلة مائة وثلاثين عاماً، هذه القيَم يجب أن تكون إسلامية خصوصية . وقد استلزمت هذه المحاولة تغيير الناس ، وكذلك تغيير المؤسسات ، وذلك على عكس بعض الثوار المزيفين الذى يريدون تغيير كل شىء ما عدا أنفسهم ، ويذكر القرآن فى هذا الصدد : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [1] .

ولأنهم استوعبوا هذه الحقيقة القرآنية ، فقد أنشأ هؤلاء الرجال فى عام (١٩٣١م) مع الشيخ ابن باديس والشيخ إبراهيم « رابطة العلماء»، والتى وضعت ضمن أولوياتها برنامجاً استلزم بذل جهد خارق لمحاربة المدرسة الداعية لمحو الشخصية ، والتى قادها المحتل المستعمر ، حيث حاول أن يخلع الطفل الجزائرى من جذور الثقافة العربية الإسلامية ، كذلك ضد ظلامية المرابطين والتى تتعارض فى خرافاتها وشفاعاتها مع روح الإسلام ، « ولهذا السبب فقد دللتها السلطة الاستعمارية » ، وكذلك ضد كل التعليم السقيم للإسلام ، والذى حنطه وأعقمه بالتكرير المجرد للماضى .

لقد كانت المشكلة تكمن فى التخلص من فخ مزدوج من الاعتماد الأعمى للنموذج الغربى للتنمية والثقافة ، ومن رفض تام لكل ما لا يتصل بالعصور الوسطى ، وكان تميز الإصلاحيين فى أنهم بدلاً من أن يعارضوا مطلقاً العلم والدين ، فإنهم أوضحوا أنه من الممكن

---

(١) سورة الرعد ، الآية ١١

تحقيق قبول « نقدى انتخابى » لعلوم وتقنيات الغرب مع توظيفها كوسائل لخدمة الإسلام .

إن الشريعة ذلك النظام الحياتى الخاضع لتنفيذ أحكام الله لا تتطلب مطلقاً التصلب فى تكرير جامد للقواعد التى نظمت حياة الأمة الإسلامية منذ ألف عام ، ولكنها على العكس من ذلك تتطلب الجهد الخلاق لتنظيم مجتمعات اليوم فى ظل ظروف تاريخية مختلفة تماماً ، والتى تتطلب المبادرات والمناهج الحديثة فى ضوء رسالة الإسلام الخالدة ، وكذلك اعتماداً على التفكر فى الله عز وجل وفى المعنى العميق للحياة والتاريخ ، فإن الإسلام يمكن أن يحمل إلى هذا العالم الذى يحتضر ليس بسبب نقص الوسائل ، ولكن بسبب غياب الهدف، يمكن أن يحمل إليه معنى الشمولية الذى يجب أن يكرس لتحقيق ما يرضى الله .

ولم يغفل الاستعمار عن أهمية هذا العمل وعمقه : فمنذ شهر مارس عام (١٩٤٠م) وضع الشيخ إبراهيم رهن الإقامة الجبرية ، وقد انتخب فى هذه الظروف رئيساً لرابطة العلماء بعد موت الشيخ ابن باديس ، وعندما أفرج عنه أوائل عام (١٩٤٣م) أنشأ فى عام واحد ثلاثاً وسبعين مدرسة فى المدن والقرى ، وأربعمائة مدرسة خلال السنوات التالية ، وقد أعيد اعتقاله بعد المذابح التى ارتكبتها قوات الاحتلال فى عام (١٩٤٥م) وفور الإفراج عنه واصل الشيخ إبراهيم مهمته التربوية .

إن التناقض بين المميزات الإنسانية للشعب الجزائرى ، والتى بدأت

التعرف عليها عن عمق من محاربى « مزاب » فى منطقة « الخميس » بجبال الأطلس ، حيث كنا قد نفينا إلى السرية القديمة عند العمال المدنيين فى « باب العويص » بالجزائر ، حيث كنت أحارب فى الحزب الشيوعى الجزائرى بعد الإفراج عنى من المعسكرات ، وبين العلماء التقدميين أمثال الشيخ إبراهيم من ناحية ، وغطرسة المحتلين من ناحية أخرى ، من المستوطن إلى مدير المقاطعة إلى الضابط ، كل هذا جعلنى أختار معسكرى دون تردد .

وفى رحلة بحثى للتعرف على الثقافة العربية الإسلامية وجدت بالجزائر العاصمة فى عام (١٩٤٤) كتاباً واسع الانتشار بعنوان «الموجز فى السياسة الإسلامية » ، وهو تعاليم مسيحية من وجهة نظر استعمارية بحتة ، وقد قرأت بإمعان هذا التعريف : « العلم العربى الذى مات وبطل استعماله بشكل نهائى مقتبس من كتب منتحلة لمؤلفين إغريق كتبت فى العصور الوسطى بأيدى اليهود » .

ولذلك كتبت فى سنة (١٩٤٤م) أول محاولاتى عن « الإسهام التاريخى للحضارة العربية الإسلامية » ، حيث وجدت هذا الكتاب بعد خمس وعشرين سنة بالقاهرة مترجماً إلى العربية بين يدى عبد الناصر الذى استقبلنى بمصر فى عام (١٩٦٩م) قائلاً : « أتدرى أننى بفضل هذا النص الصغير عرفتك منذ زمن طويل ! » .

ولكن هذا الكتاب يعيد إلىّ ذكريات مريرة .

فلقد عقدت مؤتمراً فى سنة (١٩٤٤م) بمناسبة افتتاح الجامعة الجديدة

التى أنشأتها فى تونس العاصمة ، وكان هذا المؤتمر حول « الإسهام التاريخى للحضارة العربية الإسلامية فى الثقافة العالمية » .

وفى ختام المؤتمر قام رئيس الجامعة الإسلامية بالزيتونة الشيخ فاضل بن عاشور بتلخيص الكتاب « والتعليق عليه بالطبع » بلغة عربية فصحى ، ثم قام وعانقنى .

وفوجئت صباح اليوم التالى وأنا فى الفندق برجال البوليس وقد جاءوا يقتادوننى إلى المطار ، وكان المندوب السامى الچنرال « ماست» قد اتخذ قراراً بإبعادى والنفى إلى الجزائر العاصمة ، وعرفت الباعث على ذلك فيما بعد وهو : « الدعاية المضادة لفرنسا » ، ولامونى خاصة على تصريحى بأن أكثر الفترات شؤماً فى تاريخنا هى سنة (٧٣٢) ، وهى السنة التى وقعت فيها موقعة بواتيه ، حيث تراجعت الحضارة العربية فى هذا اليوم أمام البربرية الفرنسية ، ولقد جعلنى الضحك المتواصل أضرب أغلالى حتى أوقعنى على المكتب ، فلقد كانت هذه العبارة نقلاً عن « أناتول فرانس » ! .

وكانت تنتظرنى فى الجزائر العاصمة أنواع مماثلة من خيبة الأمل ، فكنت قد استنكرت فى صحيفة « الحرية » التى كنت رئيس تحريرها فضيحة المستوطنين الفرنسيين ملاك مزارع الكروم ، والذين أخفوا تقارير الكيميائيين التى تشير إلى نسبة السلفات فى منتجات العنب ، حيث تتسبب فى موت كثير من الأطفال ، وذلك حتى يواصلوا بيعهم لهذه المنتجات ، وقد أقمت الدليل على هذه الفضيحة، فسحب منى

الجنرال «كاترو » كل أوراقى ، ولم أستطع الخروج من الجزائر بطريقة شرعية .

وقد استدعانى الحزب إلى باريس ، فاستطعت بفضل مساعدة الجنرال « ديل » الذى كان يدير اللجنة الجوية ، والذى كنت قد ساعدته فى إعداد تقريره عن قضية التعاون مع العدو ، والتى حدثت فى « بوشيو » ، وقد أبحرنا بطريقة غير قانونية ضمن فرقة من قاذفى القنابل اليدوية ، ووصلت برغم تأخر الطيران إلى أرض فاستيه أسفل « باليرا » على شاطئ « أستر » .

ولأننى لم يكن معى نقود فرنسية فقد تجولت فى المحطة حتى رأيت سائق شاحنة يهرب بها ، وقد وافق برغم أن فكرة هروبى من الجزائر لم تبدو مقنعة بالنسبة له ، إلا أنه موافق على أن يصطحبنى ، وانبطحت أرضاً حتى لا أضايق السائق الذى كان كلما وضع كمية من الفحم فى مولد التيار يعفر وجهى بطريقة لا يمكن تحاشيها ، وعندما وصلت إلى مارسيليا كنت أبدو وكأننى من مواطنى « أوجاندنجو » ، وحتى أمى بعد خمس سنوات من الفراق نقص وزنى خلالها من ٨٠ إلى ٥١ كيلو جرام، وجدت صعوبة فى التعرف على ابنها فى هذا السمت الزنجى المتضور جوعاً .

وفى اليوم التالى ، لبست جديداً وبفضل مساعدة صديقى « چان كريستوفا » العضو الشيوعى الذى خرج من سجون الجزائر ، استطعت استعادة وظيفتى فى باريس ، ولكن فى وضع كان يفتقد الأناقة .



وفى خلال حرب الجزائر نشرت تحت هذا العنوان الساخر «ملفات تربوية » نصوصاً مقتبسة من مذكرات وخطابات « مؤسسى الإمبراطورية » لا سيما « بوچو» و« مارشال سانتى أرنو » ، وآخرون مثل : « كايناك » ، وقد أوضحوا كيف قادوا حملتهم لفتح الجزائر باعتبارهم مجرمى حرب .

فقد كتب « بوچو » فى مقالة أمام غرفة المفوضين فى (١٤ مايو عام ١٨٤٠ م) : « لا بد من غزو كبير لإفريقيا شبيه بذلك الذى قام به الفرنسيون والچوتيون ... على أن يكون هذا الغزو شاملاً ، حيث المياه العذبة والأراضى الخصبة ، وفى هذه الأماكن يجب أن نوطن المستوطنين دون التفات إلى أصحاب الأرض الأصليين » . أما « مارشال سانت أرنو » فقد كتب : « لقد تركت فى مسيرى طريقاً عظيماً ، أحرقت كل القرى تقريباً وعددها مائتا قرية ، وخربت كل البساتين ، وقطعت كل أشجار الزيتون » (مايو عام ١٨٥١م) [١] .

أما العقيد « مومنتياك » فقد كتب ضمن « رسائل محارب » إلى «ماسكرا » فى (١٩ يناير عام ١٨٤٢) : « طاردنا العدو وغنمنا منه النساء والأطفال والدواب والقمح والشعير ... » .

وهناك شاهد آخر ومشارك ، يبدو أن ضميره أنبه ، فأدلى بهذه التفاصيل : « لقد جلبنا برميلاً من الآذان المقطعة زوجاً زوجاً من

---

(١) انظر : خطابات « مارشال سان أرنو » : ١/١٤١ ، ٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٧٢ ، ٥٤٩ ، ٥٥٦ ، ٢/٨٣ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ .

المساجين ، وظلت الآذان الأهلية لوقت طويل تساوى ١٠ فرنكات للزوج الواحد ، بينما ظلت نساؤهم نهباً مستباحاً »(١) .

ومن هذه « الملفات التربوية » التى نجحت فى نشر بضعة آلاف منها فى المدارس قبل أن تصادر ، استطعت أن أعيد نشرها بعد تحرير الجزائر فى بعض المواضع من كتابى « من أجل حوار الحضارات - الغرب خطر » .

ولم أكن أبحث عن الجدل ، ولكن كنت أبحث بداية عن فهم الآخر ودوافع غضبه ، وعندما أسست فى عام (١٩٧٤م) « المعهد العالمى لحوار الحضارات » كان الهدف هو توضيح أهمية إسهام الحضارات غير الغربية فى الثقافة العالمية ، وعندما نشرت فى عام (١٩٧٨م) « كتاب - برنامج » بعنوان « كيف يصبح الإنسان إنسانياً » (ط . أفريقيا الفتاة) اخترت تلك العبارة لأصدر بها الكتاب «أبحث فى الإنسان الآخر عما ينقصنى لأصبح أكثر إنسانية » ، « أحب فى كل عربى الزهور أكثر مما أحب الثأر ، فى الله تحيا الآمال » .

وبهذه الروح كتبت فى عام (١٩٨١م) : « الإسلام يسكن المستقبل » (ط . دار سلية مبرور) ، و« وعود الإسلام » (ط . سوى) ، وقانون الحوار ، أى : التخصيب المتبادل بين الحضارات هو أن لا نقارن المسيحية كما يجب أن تكون بإسلام أو ماركسية ،

---

(١) كونت ديريسور : مطاردة الإنسان ص ١١٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ .

كما هما ، ولا إسلام كما يجب أن يكون بمسيحية أو ماركسية كما هما .

لنقارن مثالاً بمثال أو حقيقة بحقيقة ، لا نقارن مثالنا بحقيقة الآخرين ، إن مقارنة الحقائق محاولة تاريخية جادة ، ولكن ليس هذا هو الهدف الذى أنشده من وراء حوار الحضارات ، فاهتمامى الأساسى ليس تاريخياً ولكن نضالياً ، ولا يهدف إلى المعرفة وحدها، ولكن الحياة التى تغذيها تلك المعرفة ، فلنبحث فى ثقافة ودين الآخرين ما يمكن أن يكون ركيزة لاستكشاف المستقبل من أجل بناء مستقبل باهر ذى توجه إنسانى .



وبهذا المفهوم يجب أن نفتح مع الإسلام حواراً حقيقياً .

إن الإسلام هو دين وأمة فى نفس الوقت . أمة مؤسسة على الإيمان ، وليست مثل كل الأمم القائمة على أساس دينى ، ولكنها أمة بمعنى نوعى متميز ، فهى أمة ليست فقط دينية : فالإيمان يتناول جميع مناحى الحياة فيها ، ليس فقط على المستوى الفردى ، ولكن أيضاً على المستوى الاجتماعى والسياسى ، وكل عقد يمكن أن يسميه المسيحى « سراً » بما فى ذلك عقد الزواج والمعاملة التجارية والمؤسسات السياسية ومعاهدات السلام .

وكان النموذج الأصلى لهذا النوع من الأمة الذى أسسه النبى محمد ﷺ عام (٦٢٢ هـ) أمة من طراز جديد ، فليست هى الأمة

القائمة على روابط الدم عند البدو أو روابط الأرض عند الحضر ، وهى ليست أمة بالمفهوم الغربى للفظ ، ذلك المفهوم القائم على وحدة الأرض والسوق واللغة والموروث الثقافى ، أى المعطيات مثل معطيات الجنس والجغرافيا والتاريخ ، أى الماضى ، ولكنها أمة نبوية قائمة على تجربة مشتركة من السمو للوصول إلى الله عز وجل .

وعندما أعلن النبى محمد ﷺ أنه لا إله إلا الله ، فقد محى كل أشكال الوثنية، وجعل القوة والثروة مسألة نسبية : فكل القوة وكل الغنى لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ، وأى فرد يمتلك جزءاً من القوة أو الثروة ليس إلا مستخلفاً مسئولاً عن ذلك .

ومن هذا الإيمان الأول ولدت التصرفات والمؤسسات كما تنبت أغصان الشجرة وثمارها من الجذور .

والتأمل فى مجتمع المدينة يسمح لنا باستخلاص القاسم المشترك بين كل المجتمعات الإسلامية التى كانت كلها تريد بكل ما تستطيع أن تكون مخلصة لتعاليم النبى محمد ﷺ .

أولا فيما يتعلق بالسلطة السياسية بشقيها الرئيسيين :

ما يتعلق منها بسلطة الله التى تصير معها كل سيادة اجتماعية نسبية، والشق المتعلق بالشورى ، والذى يلغى أى واسطة بين الله والرسول ﷺ، يستبعد تماماً الطغيان الفردى الذى يقدس السلطة ويدعى أن من يمتلك السلطة إله على الأرض ، ويستبعد الديمقراطية من الطراز الغربى بمعنى الشخصية العددية الإحصائية المفوضة ، والتى لها مطلق

التصرف ، فالحرية ليست إلغاء للفردية ولا فردية مطلقة، ولكنها تنفيذ لإرادة الله .

وكل شكل من أشكال الحكومات إنما هو تضليل ، سواءً فى شكل الملكية الفردية التى تقيم نفسها مكان الله على الأرض ، أو فى شكل جهاز حكومى يستلزم برلماناً وأحزاباً وهيئات وطوائف قبلية أو دينية ، أو فى شكل استفتاء يجاب عنه بنعم أو لا .

فلو كان مصدر القانون إلهياً بحتاً ، ولم يكن له أى واسطة تنظم العلاقة بين الله والناس ، فإن الشورى التى كانت بالمدينة لا يمكن أن تنتج اليوم إلا « ديمقراطية مباشرة » أى : مجتمع لا يقرر فيه كل الناس كل شىء فى كل وقت ، ولكن تحل فيه كل مشكلة فى محيطها فقط .

وفيما يتعلق « بالملكية » ، فإذا كانت كل ملكية خالصة لله تعالى، فكل إنسان يمتلك شيئاً بجهده لا يملك منه إلا حق الانتفاع ، والمفهوم القرآنى للملكية يتعارض تماماً مع المفهوم الغربى البرجوازى: فالقانون الرومانى يعرف الملكية بأنها « حق الانتفاع والتبديد » ، وذلك يوجب للمالك أو واضع اليد سلطة مطلقة على ما تحت يده ، ويعطيه الحق فى اقتناء الثروة بلا حدود وفى تبديدها حتى لو كان بفعله هذا يحرم بنى وطنه من الانتفاع بحاجاتهم الضرورية . وهذا هو مبدأ مجتمعاتنا الرأسمالية ، والمفهوم السوفيتى بتحويله هذه السلطة المطلقة إلى الدولة أى جهاز الحزب الحاكم لم يغير جذرياً

نموذج الاكتناز والازدياد فى النظام الرأسمالى إنه لم يغير حتى نظام احتكار الثروات من قبل أقليات أخرى متميزة .

أما فى الشريعة الإسلامية فالملكية ليست وقفاً على فرد أو مجموعة، بل هى بالعكس مهمة اجتماعية موجهة حسب المقتضيات الإلهية «لاستباق الخيرات » ، والملكية لا تعطى صاحبها إلا حقوقاً تسبقها واجبات ، إذاً فهى تفويض من الله للإنسان .

وهكذا أمكن تصور وجود نظام إسلامى متميز اقتصادياً وسياسياً أصلياً يرفض الفردية الرأسمالية القائمة على شريعة الغاب ، وينكر من ناحية أخرى الشمولية الشيوعية .

إن هذا المفهوم المغاير لعاداتنا يمكن أن يساعدنا نحن الغربيين فى أن نراجع أنفسنا فيما يتعلق بتصوراتنا عن الديمقراطية والاشتراكية وتحويلهما إلى أشياء نسبية.

ويقوم « العقد الاجتماعى » لـ « روسو » على نظرة مجردة للفرد، ولا يمكن فى النهاية أن تحقق اندماجاً اجتماعياً إلا عن طريق أسطورة « إرادة الشعب » حيث أوضحت التعبيرات التاريخية الحقيقية من خلال البرلمانات وباريس العاصمة كل ما فى هذه الإرادة من تفويض وحق التصرف لتعطى فى النهاية « كاريكاتير ساخر للديمقراطية » ، وأصبحت مشاركة الشعب فى السلطة ضرباً من الخيال والخداع صنعته ألاعيب وسائل الإعلام .

وقد فعل « روسو » نفس الشىء بالنسبة للملكية : فقد قاد مفهومها الفردى الرومانى البرجوازى إلى الكذب الاقتصادى بدعوى

« الصالح العام » ، وهى نظرية تعنى أنه لو أن كل فرد تتبع صالحه الشخصى فسيتحقق الصالح العام ، وقد مر قرنان من الاضطرابات الاجتماعية التى تمخضت عن هذه الدعوى «التحرر الاقتصادى » ، والتى لم تمت حتى الآن ، وإنما كشفت الأكذوبة الاقتصادية المعروفة بـ« الصالح العام » مثلها فى ذلك مثل الأكذوبة السياسية المعروفة بـ«إرادة الشعب » ، والتعبيرات المعروفة بـ « الاشتراكية » تكون من هذه الأساطير « الحزب » العالم الوحيد والسماوى الوحيد الذى يشكل بدوره تحت اسمه الطبقة المسئولة عن المستقبل ، ولكنها لا يمكن أن تسأل أبداً ، وقد قادت « إرادة الشعْب » أو « الصالح العام» إلى طرق أخرى مسدودة .

إننا نحاول مطلقاً أن نجعل كل المنجزات التاريخية للمجتمعات الإسلامية مثالية ، ولا نفكر أيضاً فى الادعاء بهدم النص الذى أوحاه الله بدعوى أنه أعلن الإيمان بلهجة مفهومة لشعب معين وفترة معينة ، فنلغى أنه تشريع صالح لكل الأزمنة ، ولكل الشعوب ، وذلك يكشف عن تحجر ممقوت .

لا يستطيع المرء اليوم أن يعتبر أن ما كتبه الماوردى فى عصر الخلفاء العباسيين من ثوابت الإسلام ، كما لا يستطيع مسيحى القرن العشرين أن يقيم نظامه السياسى على ضوء « الكتابة المقدسة » التى خطها « يوسوية » ليشرع ويكرس الملكية الفردية للملك « لويس الرابع عشر » ، ولو أن إسلاماً « منفتحاً » اليوم لم يتجمد فى ماضيه، ولكن استطاع أن يحل مشاكل عصره بروح أمة « المدينة »

متذكراً - حسب تعبير « چوريس » - أن يظل مؤمناً بأن ينقل من نار السلف الصالح ليس الرماد ولكن اللهب، مثلما يصب النهر فى البحر ، وهو ما يزال مؤمناً بمنبعه ، وهكذا يمكن الانفتاح ، ليس فقط بالنسبة للمسلمين ، ولكن بطريقة عالمية ، فمفهوم الأمة لا يجب أن يقف عاجزاً بسبب « العلموية الوضعية » والفردية الغربية ، ولكن يجب أن يخصب بالفضائل الأساسية لمجتمع المدينة ، وهى : السمو والشمول . هذا الشكل الحقيقى والأولى والكامل للأمة ، والذى يعم وجود الله وتصرفه كل فعل فيه من أفعال الحياة الشخصية والسياسية للإنسان ، وهذه الأمة التى ليس فيها تجريد فى تكوينها وفى البعد السامى للإنسان ، وحيث كل إنسان له مشاعر خاصة يحس بها بأنه شخصياً مسئول عن مستقبل الآخرين .

وهذه الأمة تحمل فى نفسها الوعد بالتغلب على المرضين اللذين يمكن أن يقودا الحضارة الغربية إلى الدمار وهى : « الوضعية » التى تقود إلى اليأس بسبب غياب الهدف ؛ لأنه عند تجريد البعد السموى للإنسان حولت الوضعية العلم إلى العلموية والتقنية إلى السلطة التقنية Technacratie ، والسياسة إلى الميكافيللية ، و« الفردية » التى تقود إلى صراع الكل ضد الكل ، وإلى « توازانات الخوف » .

هذا هو رهان تكامل الإسلام بالنسبة لمستقبل مجتمعاتنا : سمو ضد الوضعية ، وشمولية ضد الفردية .

ولكن الأمر لا يتطلب إلا وعداً وأملاً (وهو الأمل الوحيد الذى

يمكن أن يقهر أى شىء إلا الانتحار الكوكبى لأنه يتطلب يقيناً ما زال حتى اليوم يحرك الملايين من البشر » .

هذه الأمة الإسلامية لا يمكن أن تكون النموذج الآن ؛ لأنها اليوم بين أكثر الأمم مرضاً ، بسبب تشرذمها أولاً ، وبسبب نسيانها شخصيتها ثانياً .

وأيضاً بنسيانها « عالميتها » وسلطتها باعتبارها مكملة لكل الرسالات السابقة ، والتى تسمح لها بأن تتبوأ مكانها كوحى خاتم ، والشخصية اليوم على عكس المطلوب تنشدها الأمة فى خصوصياتها كما لو لم يكن الإسلام سوى دين بين الأديان نشأ فى فترة معينة ولشعب معين ، وكما لو لم يكن الإسلام بدعوته الدين الأساسى والأول ذلك الدين الذى ولد مع الإنسان الأول « آدم » ، ومع أول صلة بين العبد وربه ، وهو الدين الذى آمن به جميع الأنبياء ، وهو دين كل الشعوب، وهو الذى استطاع أن يكمل ويعيد الحياة إلى الثقافات السابقة بأن جعلها تستعيد ذكر الله .

وكذلك فعاليتها المعاكسة لفلسفة « الوجود » عند الإغريق (حيث التحول المحسوس ليس إلا مظهراً متحركاً للسكون الأبدى للفكرة » هذه الديناميكية فى مفهومها عن الوجود تفتح الطريق لفلسفة «الفعل» بمعنى التدفق الإبداعى اللامتناهى ، وهذه الفلسفة تحمل فى داخلها «مبدأ الحركة » والتجدد ، ومن منطلق هذا المبدأ تدعو الرسالة القرآنية كل إنسان أن يعمل جهده فى كل عصر لإيجاد الحلول الجديدة

التى تستجد يومياً فى عالم من التحول الذى لا ينتهى ، لقد فقدت الأمة هذه الديناميكية .

إن واجبنا الأول هو أن نوقظ الإسلام من سباته الطويل حتى يستعيد فعالية الإسلام فى أول عهده ، ونكرر أنه فى العالم المعاصر لا يزال هذا الإيمان هو الوحيد القادر على تحريك الجماهير ، وليس هذا الأمل فقط من أجل أن يستعيد المسلمون دورهم كعنصر « فعال » فى التاريخ ، وليس « كعضو » خامل ومهين كما كان فى عصر الاستعمار ، ولكن هذا الأمل أيضاً من أجل حضارتنا التى تتنازعها الوضعية والفردية ، وبذلك أصبحت غير قادرة على طرح السؤال «لماذا» أن تجعل للحياة والموت والتاريخ معنى ، وقد وقعت هذه الحضارات فى براثن الزيادة من أجل الزيادة ، والقوة من أجل القوة، مما قادها إلى تدمير نفسها بنفسها ، يجب أن يكون عندنا هذا الأمل من أجل بقاء العالم .

وهذا هو الرهان الذى يرتكز على ثلاثة موضوعات أساسية وهى:

١ - عالمية الإسلام .

٢ - نظرة الإسلام للحياة والبشر .

٣ - شروط نهضة الإسلام .

روچيه جارودى



الفصل الأول

توحيد العبادة فى الإسلام

الفصل الأول

توحيد العبادة فى الإسلام

لم يزعم النبى محمد ﷺ أبداً أنه أتى بدين جديد [1] ، ولكنه ذكر البشر بالدين الأساسى الذى كانت عليه البشرية منذ آدم عليه السلام : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [2] .

إذاً فهو الدين الأول والرسالة الخاتمة : البعد السموى للإنسان ، والذى يتناول كل مناحى الحياة .

والإسلام فى مبدأه أعظم الأديان « توحدية » ، والقرآن يخبرنا أن الله عز وجل ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾ [3] .

---

(١) ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ (سورة الأحقاف ، الآية : ٩) .

(٢) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

(٣) سورة الشورى ، الآية : ١٣ .

وقد كانت رسالات كل الأنبياء واحدة ، وهى : الخضوع لشريعة الله الواحد الأحد .

وهذه الشريعة هى شريعة كل الخلق : فالحجر فى هبوطه ، والشجر فى ازدياده ، والحيوان فى غرائزه ، كل هذا خاضع لقانون الله سبحانه : ﴿ **ربنا الذى أعطى كل شيىء خلقه ثم هدى** ﴾ [(١)] .

والإنسان وحده هو الذى يتميز بحرية الطاعة أو عدمها ، وهو تميز خطير : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولا** ﴾ [(٢)] .

وعندما يصبح الإنسان مسلماً ، أى : يلبى نداء الله بلا قيد ولا شرط متبعاً : ﴿ **ملة أبيكم إبراهيم** ﴾ [(٣)] حين اتبع هداية الله وقبل التضحية العظيمة ، عندئذ يكون الإنسان قد أصبح مسلماً باختياره ، وأصبح حراً ومسئولاً ، ومن أجل هذه الحرية أسجد الله له الملائكة الذين لا يملكون سلطة المعصية : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾[(٤)] ، ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[(٥)] ، إذاً فالإنسان أعده الله ليكون خليفته على الأرض .

ووظيفة الخليفة هذه ليست وظيفة وكيل تابع مكلف بتنفيذ أوامر

---

(١) سورة طه ، الآية : ٥٠ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٣٤

(٥) سورة ص ، الآية : ٧٢ .

سيده بطريقة سلبية ، فالخليفة هو الذى يجب أن يتخذ قرارات فى نطاق ما هو مسئول عنه ، وذلك كله وفق منهج الاستخلاف الذى شرعه المولى عز وجل .

وعلاقات الله مع البشر مختلفة عن علاقات الله مع الطبيعة ، ولذلك فقدرة الله يختلف تصرفها فى الحالتين ، وقد فرق فخر الدين الرازى فى تفسيره العظيم المعروف بـ « مفاتيح الغيب » بين « عالم الخلق » و« عالم الوحى » ، فلكل كائنات الطبيعة قوانينها والخلق المستمر يؤكد صيانة العالم بخلقه فى كل لحظة ، وعند الأشعرى (ت ٩٣٦ هـ) صيانة العالم تكون فى الطاعة الضرورية .

ولكن الإنسان بدافع من حريته ، يظهر له فعل الله المستمر فى صورة «آيات » يقدمها الله له فى صورة الظواهر الطبيعية ، والأحداث التاريخية والرسالات الإلهية ، ولذلك فقد حدد ﴿ الصراط المستقيم﴾[1] ، ولذلك اقتضت الشريعة الإلهية أن الإنسان بإمكانه أن يرفض أو يخضع لإرادة الله إذا اجتهد لتفسير هذه الظواهر وفهمها .

ولذلك فليس للجبرية أى وجود فى القرآن .

★ ★ ★

التشريع بين الجبرية والقدرية

ودون أن ندخل فى معارك ضارية حول « الجبرية » التى أرهقت الفكر الإسلامى « كما أرهقت الفكر الدينى المسيحى لا سيما بعد

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية : ٦ .

كالان » فإنه من الأهمية بمكان أن نهدم أسطورة «القدرية الإسلامية»، وهى موضوع محبب إلى أعداء الإسلام الذين وجدوا فيه ما يخدم بعض التفسيرات العقائدية للسُّنَّة .

ومنذ نهاية القرن الأول الهجرى ، وبخاصة فى بداية القرن الثانى تعارضت بقوة طائفتا « الجبرية » الذين يعلمون مذهب الجبر بدعوى أن الله له القوة والعلم وحده ، و« القدرية » الذين روجوا فى مشكلة العلاقة بين مسئولية الإنسان وإرادة الله القول بأنه إذا كان الله اقتضت إرادته أزلاً تحديد أفعال الإنسان ، فإنه من المستحيل أن يعاقبه على الأفعال التى لم يكن من الممكن ألا يفعلها ما دام الله قد أرادها .

والوحى القرآنى يلغى « القدرية والجبرية » ، ويقول : إن الله هدى كل إنسان إلى ما يصلح حياته ، وهذا قانون ضرورى للطبيعة .

ولا يهرب الإنسان من هذا الشرع ، ولكن بالنسبة له فإن هذا الشرع ليس قدراً لا محيص عنه ، ولكنه إرشاد ربانى ، ويمكنه أن يرفض الخضوع له ، ولهذا فإن الله أرسل الرسل ليذكروا الإنسان «بالصراط المستقيم » ، ولكن نكرر مرة أخرى أن الإنسان بوسعه أن لا يقبل الهداية ولا يستمع لصوت الأنبياء . وكل هذا مذكور فى القرآن بكل صراحة .

★ يقول الله عز وجل : ﴿ **الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى**﴾[1] ، وقد تكرر هذا الموضوع مرات كثيرة فى (الفرقان ،

---

(١) سورة الأعلى ، الآيتان : ٢ ، ٣ .

آية ٢ ، القمر آية ٤٩ ، يس ، الآيتين ٣٨ ، ٣٩) ، ومن الواضح أن المجادلات نشأت من تفسير كلمتى « قدر » ، و« تقدير » ، والذى فسرهما المفسرون بكلمة « مصير » ، و« أمر » ، و« معيار » و«قانون»، وذلك لأنها فى الواقع تحتمل كل هذه المعانى .

ولكنها كانت لا بد أن تفسر بشىء آخر هو : « رسم طريقاً » ، أو «هدى سبيلاً » .

واستعملت الكلمة فى القرآن لتقول : كيف أن الله رسم قانوناً لنزول المطر (المؤمنون ، الآية ١٨ ، و(الزخرف ، آية ١١) ، أو تعاقب الأيام والليالى (المزمل ، آية ٢٠) ، وهنا لا بد من الضرورة والحتمية فيما يخص سير الطبيعة .

★ ولكن الإنسان لا يخضع لقانون الحتمية هذا ليكون صالحاً أو فاسداً كما ينزل المطر أو تشرق الشمس أو تغرب ، والفكرة التى تقول : إن الله أجبر الإنسان على فعل الشر يرفضها القرآن صراحة ، وقد ورد مذهب الجبرية على لسان الأشرار والعصاة والداعين إلى الشرك ، وكان أعظم أخطائهم خطراً كما قال القرآن هو أنهم قالوا : ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا ولا ءاباؤنا** ﴾ [١] .

وفند الله حجتهم بقوله عز وجل : ﴿ **قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ [٢] ، ولكنه سبحانه ترك للإنسان القدرة على أن يضل ولم يجبر أحداً على الضلال .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٤٨ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٤٩ .

وعلى عكس ذلك وبنفس الصراحة يوضح القرآن :

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شآء فليؤمن ومن شآء فليكفر ﴾ (١) ، ويقول الله عز وجل أيضاً : **﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ... ﴾** (٢) .

والطبيعة كلها خاضعة لأمر الله الذى يعرض لنا الكثير من الآيات التى تهدينا إلى أمره عَزَّ وجَلَّ ، والبحث العلمى المدفوع بالرغبة فى معرفة إرادة الله يدفعنا فى هذا الطريق ، ولقد قدم الإسلام أعظم أشكال هذا الحافز العلمى ، والبحث فى الجامعة الإسلامية بقرطبة .

ولقد استنارت الثقافة من هذه الجامعة الإسلامية بقرطبة على ثلاثة مناحى بدت فيها الثقافة فى شكلها المتكامل :

- العلم ، وجد للعلم منهجه التجريبى الذى يهدف إلى اكتشاف العلاقات بين الأشياء ، وترتيب عللها .

- الحكمة ، وهى انعكاس على معنى كل شىء وعلاقته بالله عَزَّ وجَلَّ فى عالم واحد متناسق ، يجعل الحياة لها معنى وهدف .

- الإيمان ، باعتباره اعترافاً بأن العلم لا يمكن أبداً أن يصل إلى العلة الأولى ، ولا إلى غاية الحكمة ، والإيمان أيضاً باعتباره الضمير الذى يضبط حدودنا ومسلماتنا ، والإيمان باعتباره عقلاً بلا حدود .

ومن هنا نشأ علم الفلك تلبية لحاجات البر والبحارة الذين لم يكن

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الإنسان ، الآية : ٣ .

لهم فى صحاريهم أو محيطاتهم من هاد سوى النجوم وبعض الأشياء التى يحددون بها مواقيت الصلاة حسب الظواهر الكونية .

ومن هنا أيضاً نشأ علم الطب على أساس عدم التفرقة بين نفس الإنسان وجسمه ، وعلى التعامل مع الإنسان ليس كآلة يجب إصلاح تروسها ، ولكن ككل متكامل ، كعمل صنعه الله بجماله وقدرته .

ومن هنا أيضاً ازدهرت الرياضيات كعلوم دقيقة للعلاقة بين الأشياء، ولكن أيضاً كلغة يكلمنا بها ليكشف لنا الأشكال النموذجية لعالم لا تعد الأشياء الجميلة فيه إلا آيات بعيدة .

إن الآيات التى توضح للإنسان وحدة مصدره وغايته ليست فقط فى آيات الطبيعية ، ولكن أيضاً فى آيات الوحى : فكل آية من الرسالة هى علامة توضح للإنسان « الصراط المستقيم » ، ومعنى حياته وتاريخه وموته والهداية فى سلوكه .

وبهذا المفهوم يكون الإنسان حراً فى اختياره وفى قراره ، ولكنه يهتدى فى هذا الاختيار وهذا القرار بآيات الطبيعة والآيات التى جاء بها النبيون ، فحرية الإنسان تكشف عن شروط ازدهاره : وهى إمكانية أن يقول لا ، ولكن أيضاً إمكانية البحث عن غاية ، والبحث فى آيات الطبيعة وكلام الأنبياء ليكتشف الصراط المستقيم فى تصرفه المطلق ، بينما يشارك بسلوكه فى تحقيق إرادة الله ، وبهذا لا تتعارض الحرية مع الضرورة ، فأنا حر بذات القدر الذى يعد سلوكى ضرورياً بحسب طبيعتى الحقيقية ، والطبيعة فى أبهى صورها كما كتب

«موريس بلوندل » : « عندما تتماثل الإرادة المريدة مع الإرادة المرادة».

وكل الحجج التى ساقها أعداء القرآن أو أنصاره العقائديون ليجدوا فيه تبريراً للقدرية أو الجبرية هى حجج خادعة .

والمحاولات التى قام بها « ماكدونالد » فى « موسوعة الإسلام » ليطبق هذا الوصف الجبرى ، والذى قال فيه عن رسول محمد ﷺ: « إنه كان اختيارياً وإرادياً فى مكة ، وجبرياً فى المدينة » أقامه على الآيات الآتية : ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ [١] ، ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ [٢] ، هى محاولات عبثية ؛ لأنه ليس هنا أى «جبرية » ، ولكنها فقط التأكيد على أن الإنسان يمكن أن يقوم بمهمته بنجاح معتمداً على قوة الله القادر التى هى مصدر كل شىء ، وبشرط اتباع الطريق الذى رسمه على يد أنبيائه .

★ ★ ★

هل يوجد جبرية فى القرآن ؟!

هناك محاولات أخرى لإثبات أن فى القرآن « جبرية » ، وهذه المحاولات تزعم الاعتماد على الآيات التى تقول : إن الله « ختم على قلوب البعض » ، وعلى العكس من ذلك يؤكد القرآن لمرات عديدة أن الإنسان خلق بلا خطايا ، وأن طبيعته خيره : ﴿ **فأقم**

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ١٧ .

وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [١] ، هذه القلوب التى ختم عليها هى قلوب الضالين الذين اختاروا أن يعيشوا ضد إرادة الله وهذه القلوب ختم عليها بسبب اختيارها وتصرفاتها ، والتى يسأل الإنسان عنها ، ولم يختم على هذه القلوب بقرار سابق من الله لضحاياه ، ومنذ الصفحة الأولى نجد القرآن يقول : **﴿ إن الذين كفروا سواءٌ عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾**[٢]، إنما يختم على القلب بسبب كفره وليس الله هو الذى يقرر كفره ، ولكنه سبحانه يقول فى كتابه العزيز : **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾** [٣] ، فهذا الختم على القلب إنما هو عقوبة وليس باعثاً على الأفعال السيئة ، ولكنه عقاب : **﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾** [٤] ، والذين لا يريدون أن يسمعوا نداء النبى : **﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾** [٥] .

نفس التفسير المغرض يغير معنى الآيات فى قوله تعالى مثلاً : **﴿قل لن يصيبنآ إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل**

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان : ٦ ، ٧ .

(٣) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦ .

(٤) سورة غافر ، الآية : ٣٥ .

(٥) سورة محمد ، الآية : ١٦ .

المؤمنون ﴾[1] ، أو قوله تعالى : **﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾**[2] .

وليس فى هذه الآيات لا جبرية ولا قدرية ، ولكن فقط التذكير بقدره وإرادته المهيمنة على الأرض ، وأن العداوة بالنسبة للمسلمين ليست إلا اختباراً لصلابتهم : **﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ﴾**[3] ، فهل هناك باعث أفضل من ذلك لإطلاق طاقات البشر ؟

نعم ، إن فى بعض الأحاديث تفسيراً لآيات القرآن التى ذكرناها تفسرها بمعنى الجبرية .

وهذا التفسير لم يأت فجأة : فهناك كثير من الأحاديث جمعت فى عهد الأمويين (٦٠٠ - ٧٥٠م) أى فى الفترة التى كان المسلمون الأتقياء ساخطين على سلوك حكامهم البعيدين عن النموذج القرآنى، وحتى يدخلوا الناس فى الطاعة وجب عليهم أن يستخرجوا من القرآن مذهباً يؤكد أن الله قضى فى الأزل أن هؤلاء الناس سوف يحكمون ، وأن أعمالهم السيئة وجرائمهم جزء من القدر الذى حدده الله ، ولذلك مدح الشعراء المتملقون أمراءهم بأنهم « جاءوا الخلافة أو كانت لهم قدراً »[4] ، ولذلك اعتبرت الجبرية تفسيراً للظلم والطغيان . . بل يمكن القول أن بعض فترات فى تاريخ الإسلام

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٥١ .

(٢) سورة المجادلة ، الآية : ٢١ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٦ .

(٤) ZDMG ٥٧ ، ٣٩٤ ، والشاعر الفرزدق ص ٣٥ ، ٦٠ (السابق) .

عرفت ما يتعارض كلية مع القرآن ، حيث يقول القرآن : **﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبرآءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾** [١] .

وبعيداً عن هذه المهاترات وتحريف المعانى ، فإن الذى يبقى هو أن الإسلام يحتوى فى مصدره القرآنى على القاسم المشترك وختام كل المثل الروحانية فى العالم .

وهو يذكر الإنسان بمهمته التى هى تحرى هداية الله واتباعها . فأن نكون مسلمين تعنى أن نتعرف على اتباعنا لله وإرادته ، وهو سبحانه مخالف للحوادث، « وكفاية » الإنسان عكس الإيمان فى هذا السمو الإلهى ، وهذه هى الخطيئة العظمى **﴿ كلا إن الإنسان ليطغى * أن رءاه استغنى ﴾** [٢] .

. . . وهذا الدين الذى شهد به إبراهيم شهادة يحتذى بها ، وهى خضوعه الغير مشروط لإرادة الله الواحد مصدر كل المثل والأسباب (البقرة ، الآيتان : ١٢٤ ، ١٣٥ ، وآل عمران ، الآيتان : ٦٧ ، ٩٥ . . . إلخ) .

وهذا الدين الذى هو خضوع لله ولله وحده هو إجابة مسئولة وحرة لنداء الله، وهو نداء يشتمل على كثير من الشعائر والعقائد ، ويتلخص فى الإيمان البسيط ، وهو : لا إله إلا الله ؛ لأن القرآن

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة العلق ، الآيتان : ٦ ، ٧ .

يقول لنا : ﴿ **لو كان فيهما ءالهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ [1] .

★ ★ ★

الغرب .. بين الإلحاد وتعدد الآلهة

وليس من دليل وبرهان على هذه الحقيقة الأساسية أكثر من الموقف الحالى لعالمنا الغربى : فإن الإلحاد الذى أعلنه الشرق رسمياً ومارسته البلاد الغربية دون تصريح به ، ونسيان الإله الواحد الذى هو المبدأ الحى للأمة الحقيقية والتى تعلو فيه نظرة العالمية على كل المصالح الشخصية ، كل هذا قاد إلى هيجان فوضوى للمصالح والطموحات وإرادات القوة وإرادات الأديان لدى الأفراد والجماعات ، والتى تعارضت فى خليط همجى .

هذا العالم الخالى من الإله فيما بعد الحياة الباطنة لبعض الأقليات التى تحتفظ بمعنى « المطلق » ، وتحيا حياتها الشخصية حسب القانون السامى لحب المسيح ، ولكن دون أن تتوصل إلى خلق مجتمع مسيحى أو تعديل القوانين الصارمة فى عالم يحرم فى مبادئه البعد السامى للإنسان فى علاقته مع الطبيعة ، وسمو الله وعظمته سبحانه بالنسبة إلى هذا الإنسان، ولقد أفسح هذا العالم الذى بلا إله المجال أمام الشرك الحقيقى .

إن عالمنا الغربى ليس فقط ملحداً ، ولكنه يؤمن بتعدد الآلهة ،

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .

فكل فرد وكل جماعة تضع لها إلهاً حسب رغبتها ، معتبرة المال والسلطة والتقنية والجنس والأمة والإيديولوجية والازدياد غاية فى حد ذاتها وقيمة مطلقة وإلهاً مزيفاً كاسراً متعصباً وملتهماً لكل من يخدمه ومتعالياً بلا رحمة على كل قيمة ، وعلى كل إنسان آخر يتعارض مع انتشاره وتمدد سلطانه .

وفى عصرنا هذا حيث المال هو طريق الوصول إلى كل الرغبات وكل السلطات منذ بداية عصر الرأسمالية ، فإن كثيراً من المفكرين بعيدى النظر أمثال « توماس هوبز » رأوا أن هذه الرغبة وتلك المنافسات ستؤدى بالمجتمع إلى « حرب الكل ضد الكل » سواءً فى شكل منافسات تجارية أو صناعية يدمر فيها الأقوياء الضعفاء أو يمتصونهم ، وإما فى شكل مواجهات طائفية هدفها حصر المجتمع، حيث يهدف كل منها إلى السيطرة ونصرة مصالحه الطائفية عن طريق وسائل القوة المتاحة له حتى ولو كان ذلك ضد المصلحة المشتركة ، ومحصلة هذه المصالح وهذا العنف المتبادل شىء لم تره عين قبل ذلك، وهو شىء يقود إلى انحرافات انتحارية لازدياد أعمى ، حيث تذهب أكبر الاستثمارات لأكثر المشاريع ، ربما وهى التسليح والطاقة الذرية والفضاء مثلاً ، وأن يكون القانون الملازم لنظام بلا غاية إنسانية فى خدمة تدمير الإنسان ، وليس فى خدمة سعادته .

ونفس غياب مبدأ سمو التصرف ، والذى ينشأ عنه أطماع الأفراد والجماعات الذى يقود إلى نتائج مشابهة للمجالات الأخرى : فالسلطة من أجل السلطة هى اليأس المطلق أو أكاذيب ديمقراطية شريعة

الغاب ، ومواجهة الأحزاب دون مشاريع ذات توجه إنسانى ، ودونما غاية سوى هزيمة الخصم لتخلفه فى الحكم أو الانقلاب ، ودكتاتورية الزعماء الحزبيين الخونة .

والنزعة الجنسية المجردة من الحب والتى انحصرت فى المتعة الحيوانية الخالية من بعدها الإنسانى والإلهى لم تعد اللغة الشاعرية للعلاقة الحميمة مع الآخر ، ولم تعد حباً للآخر ، بل أصبحت حباً للنفس وانغلاقاً على عزلتها الحقيقية .

والأمة ميراث الماضى وأسواقه التجارية والمحتفظة بمنافساتها وأساطيرها التاريخية تهدف إلى إضفاء نوع من « الأريج الروحانى » على مشاريعها من الغزو والعنصرية والاستعمار والعبادة الهمجية «لمصلحة الدولة » ، وخاصة الحرب .

والفن من أجل الفن أى الفن بلا أى رسالة إنسانية أو إلهية ، حيث الهدف هو التسويق والموضة ، والتقنية من أجل التقنية بمعنى الوسائل الممكنة فى خدمة أشياء بلا هدف ولا غاية ، والأيديولوچية أصبحت عقيدة ومِلَّة أدت إلى حروب صليبية جديدة ومحاكم تفتيش جديدة .

هذه بعض صور الشرك والفوضى فى مجتمع بلا إله وتحكم حياة الغاب ، فيه آلهة مزيفة مخادعة ، وحتى نتغلب على هذه الفوضى على الأرض وفى السماء يجب أن نذكر كما حثنا القرآن الضمير الذى منحه الله لكل إنسان ، والذى يحكم به على الأشياء بمعيار مطلق لا يتوقف على أغراض شخص بعينه أو مجموعة بعينها ، وهكذا فقط

يمكن أن تنشأ أمة إنسانية وعالمية ، وليست أمة جزئية كنسية أو دينية فقط تحوى علماء الأصول أو أساتذة القانون ، وهى أمة لا تزعم أنها تجسيد لملكوت الله ، أو أنها تحتكر الحقيقة المطلقة التى تعطيها الحق فى التسلط وتحديد المحرمات - فكل مسلم مسئول أمام الله دون واسطة .

والتأكيد على وحدانية الله ليس تقريراً قط ، ولكنه تصرف ، فالتوحيد ليس مجرد فعل : هو الحكم بوجود الله الواحد الأحد ، إنه التزام ومبدأ للسلوك يستوحى حياتنا فى صورتها التكاملية ، وكل سلوك خاص حتى أقل فعل وحتى الأفعال اليومية ، كل ذلك له مهمة هى تحقيق منهج الله على الأرض من أجل إيجاد أمة عالمية تغير العالم إلى وحدة حقيقية .

ولا يكفى أن نؤمن بوحدانية الله ، بل لا بد أن نحارب من أجل شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله على تلك الأرض المتنافرة ، ويكون جهادنا « فى سبيل الله » ، وعلى جميع المستويات من الاقتصاد إلى الأخلاق ، ومن السياسة إلى العلم حتى الفنون، وهذا هو المعنى الشامل للجهاد ، والذى يفسر غالباً خطأ « بالحرب المقدسة» ، وهو مفهوم شرحى لعبارة : « الجهاد فى سبيل الله » ، ومعناه الشامل : أن نجاهد أنفسنا أولاً لنحقق وحدة حياتنا الباطنة ، ولنملك أنفسنا ، ثم نجاهد فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية دون أن نحرم الكفاح والمواجهة ليس من أجل نشر الإسلام فقط حيث ﴿لا

إكراه فى الدين ﴾ [1] ، فالإسلام دعوة ليس فيها غموض ، ولكن نجاهد من أجل مقاومة كل اضطهاد يتعرض له الذين يريدون أن يعيشوا فى ظل هداية الله، فهى مقاومة وليست غزواً ، ولو كان هناك تصرفات غير ذلك فى تاريخ الإسلام (كما حدث أيضاً فى تاريخ اليهودية والمسيحية عندما سادوا بالقوة) ، فهذا مخالف للتعاليم القرآنية وليس تطبيقاً لهذه التعاليم [2] .

إن الإسلامَ يحتوى فى نفسه على كل الأديان الأخرى ، والمسلم يؤمن بكل رسالات الله وكل أنبياءه .

وبداية من الصفحة الأولى للقرآن نقرأ : **﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾** [3] .

﴿ قولوا ءامنا بالله ومآ أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [4] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٦ .

(٢) لقد فصل الإسلام هذا الموضوع بوضوح (الحج ، آية : ٧٨ ، العنكبوت ، آية : ٦، ٦٩ . . . إلخ) ، والسياق نفسه يوضح ذلك : ﴿ وجاهدوا فى ﴾ وليس : «وحاربوا ضد» .

(٣) سورة البقرة ، الآيات : ٢ - ٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٣٦ .

وقد كرر القرآن ذلك مرة أخرى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾[1].

وعندما يبعث الله إلى الناس « رسولاً » أو « نبياً » ، فإنه لا يختار فيلسوفاً ولا عالم لاهوت ولا أستاذاً فى القانون ، ولكنه يختار راعياً مثل موسى عليه السلام ، أو نجاراً مثل عيسى عليه السلام ، أو تاجر أمياً مثل محمد ﷺ ، حتى تكون رسالته ﴿ بلسان قومه ﴾ [2] ، وحتى يحتذى ببساطته ملايين البشر ، فلم يصبح إيمان الأنبياء «تلمودياً» إلا مع الكتاب والفريسيين ، كما أصبحت المسيحية بعد يسوع قسطنطينية ومدرسية ، وكما أصبح الإسلام بدوره « تلمودياً » و« قسطنطينياً » فى تشريعه وشعائره حتى كان الانطباع السائد هو أنه لكى تصبح مسلماً فيجب بداية أن تصبح عربياً ، وذلك فى القرن العاشر فى زمن العباسيين [3] .

وهذا خطأ مماثل لخطأ المنصرين المسيحيين فى أفريقيا السوداء، والذين بدلاً من أن ينشروا الرسالة المسيحية بما يخدم روحانيات وثقافات تلك الشعوب ، فإنهم كانوا يعلمونهم المسيحية الرومانية كما لو كان من المفروض على الأسود لكى يصبح مسيحياً أن يصبح أولاً غربياً أبيض.

إن هذا التحجر من جانب المسلمين لهو تحجر غير متسامح ، ويتعارض مع الوحى القرآنى الذى حمل إلى العالم وإلى البشرية نظرة نشطة وفعالة وديناميكية .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤ .

(٣) لقد شهد العصر العباسي كما يذكر التاريخ العنصرين الفارسي والتركي على مقاليد السلطة ، حتى أصبحوا يوجهون الخلفاء ومقدرات الدولة ، فكيف يزعم المؤلف تغلب العنصر العربي بل وتحويل غير العرب إلى عرب بالقوة، فهذه مغالطة تاريخية (المترجم) .

الفصل الثانى

النظرة الديناميكية للعالم

فى القرآن

الفصل الثانى

النظرة الديناميكية للعالم في القرآن

إن النظرة الديناميكية للعالم فى القرآن تنتج عن الفعل اللامتوقف لخلق الله ، فالله هو ﴿ **الحى القيوم** ﴾ [1] ، وهو القائل : ﴿ **أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** ﴾ [2] ، وهو القائل : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ [3] .

وهذا الخلق ما زال مستمراً فى الكون فى كل شىء ، وعلى عكس سفر التكوين يؤكد القرآن أن الله عز وجل : ﴿ **لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾ [4] ، ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ [5] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ ، وسورة آل عمران ، الآية : ٢ .

(٢) سورة يس ، الآية : ٨١ .

(٣) سورة الحجر ، الآية : ٢٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .

(٥) سورة الروم ، الآية : ٢٧ .

وهذه النظرة تعارض كل فلسفة للوجود من « بارمنيدس » حتى «چان بول سارتر » تلك الفلسفة التى تجعل البعث مستحيلاً .

ولو افترضا وجوداً سابقاً على الوجود فسيكون الفعل الخالق لله لا يمكن فهمه إلا فى صورة تصرفنا التقنى والحرفى : وسوف يفهم الخلق بطريقة تجسيمية ، أى العبور من الممكن « الوجود بالقوة » إلى الحقيقى « الوجود بالفعل » ، فالممكن هو « المشروع » ، والحقيقى هو « المنتج » ، وتتداخل بين الاثنين وسيلة خاملة دون شكل وعمل آمر بأمرها .

وهذا أيضاً أثر من الموروث اليونانى الذى صيغ فى أفضل الصور اختصاراً نقلاً عن « أناكسا جوراس » وهو « كان الهباء ثم جاءت الروح فوضعت كل شىء فى مكانه » .

فلا حكم الشرق الصينية أو الهندية ولا حتى الديانات الإبراهيمية الثلاث لم تستطيع أن تتوافق مع هذه التجسيمية ، فاليهودية والمسيحية والإسلام بينما وقعوا ضحايا الانحراف الفلسفى للأرسطية مع « ابن ميمون » ، ومع « ابن رشد » ، و« القديس توما الأكوينى » ، فقد اقترحوا توليفاً مهجناً لمفهوم الخلق الإلهى مع المفهوم اليونانى لخلق العالم ، وانتهوا من ذلك إلى مفهوم يحتاج إلى توضيح ، وهو الخلق من العدم : « Creation exnihilo » ليس هناك ما يمكن أن يوجد خارجاً عن الله بما فى ذلك العدم ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يخلق من العدم إلا الله ، فهو سبحانه أيضاً هو الخلق نفسه ، ففعل « خلق » فى القرآن يعنى حصراً فعل الله للخلق ، وليس فعل الصانع

أو الفنان ، ولا يستخدم هذا الفعل إلا فى نطاق قوله تعالى لكل شىء : ﴿ كن فيكون ﴾ [1] ، إذاً فهذا الخلق مصدره الله . و« العدم» كلمة مجردة فى معناها الفلسفى مثلها مثل كلمة « تاريخ » فى المعنى الطبيعى ، كما أن كلمة « وجود » تستعمل وضعاً ، وهى كلمة مجردة لا تدل على شىء فى الحقيقة ، فالكلمتان « عدم » و« وجود» لم توجدا إلا من خلال المقارنة التجسيدية بين « ملىء » و« فارغ » ، وحتى يجعلا الحركة ذات مفهوم ، فإن « ديمكوريتس » ومن بعده «أبيقور » جزأ الوجود الأسطورى عند « بارمنيدس » حتى يمكن للذرات (وهى ما يتعذر قسمته ، وهو تجريد كبير أتى من المقارنة بين ذرات الرمل أو التراب) أن توضع فى الفراغ الذى يفصلها عن بعضها البعض .

وكل استعارات « سارتر » فى كتابه « الوجود والعدم » تكشف عن نفس النظرة التجسيدية : فهو يتخيل بدوره « انشقاقاً » فى الوجود ، و« فراغ » العدم حول الوجود مثل النجار أو الميكانيكى الذى يقول : إنه يجب ترك « فراغات » بين قطع الخشب أو الحديد حتى يمكن أن يتحرك ، ولكن حسب افتراض « سارتر » ليس من الممكن أن نشرح ظهور هذا التصدع فى الوجود حيث « حسب تعريفه » لا يحدث شىء ، ولا يمكن أن يحدث شىء .

نفترض أولاً : بديهية الوجود والتى تمنعنا من الخلق إلى الإعادة ، وكذلك من المفترض أن يعترف فلاسفتنا الهللينيون أن الحديث عن

---

(١) سورة يس ، الآية : ٨٢ .

« الوجود » (وهو صفة إذا تخيلنا أن وراء الكلمة شيئاً مجسماً) ، وهذه مصادرة ، وهى أن تفترض حقيقة شبحية كامنة وراء هذا التجريد « يكون » هو فعل يوضح علاقة كما نقول مثلاً : الرصاص يكون ثقيلاً ، ولكن قولنا : إن الرصاص يكون ، هذا يتوقف على الفراغ الخارجى ؛ لأن الرصاص لا يعنى شيئاً إلا فى ارتباطه بشىء آخر ؛ لأنه قد يكون ثقيلاً بالنسبة لعضلاتى أو بالنسبة لخيط مربوط فيه ومن ثقله قطع هذا الخيط، فيكون هو الفعل نفسه ، أى فعل الدخول فى علاقته مع آخر غير نفسه، وهذا الآخر يؤثر فيه .

ويمكن للمرء إذن أن يطرد شبح الموجود هذا ، وقد اختصره «سارتر » نفسه بالفعل إلى « سلسلة الظواهر » .

ولكن المشكلة الحقيقية هى أن نعرف ما إذا كان مشهد الظواهر هذا مفككاً أم لا ، ولا يمكننى أن أكرر ذلك من خلال هذه الظواهر وحدها ، والزعم بتفسير نظامها بافتراض وجود فيما وراء وجودها هو كما رأينا مجرد فرض ، وكل محاولة لتفسير ذلك بما فيها رفض التفسير أو إعلان هذا المشهد العبثى الخالى من المعنى تستلزم مصادرة - أو إذا فضلنا ذلك - أو « يقيناً إيمانياً » ، وإذا كنا لا نستطيع أن نتحاشى البدء بمصادرة أى برهان ضرورى حتى نتصرف ، ومع ذلك فهذا البرهان يتعذر إثباته ، فهذا لن يقودنا إلى أن نختار هذه المصادرة تعسفياً ، ففيما يتعلق بالوجود فإنه لا يعطينا أى توضيح ، وفيما يتعلق بالعدم « أى العبث وغياب المعنى » ، فهذا يمنعنا من كل

تصرف : إذن فما الفائدة ؟ وقد يدفعنا هذا العدم إلى مغامرة بلا هدف ! لم لا ؟

التكامل بين الوحي والعقل

ومن بين هذه الافتراضات هناك فرض واحد يعتمد بالتأكيد على أن الحياة والعالم وتاريخه كل ذلك له معنى .

ونقول : إن الله اختار هذه الحياة وهو سبحانه حر فى ذلك ، ولا يمكن أن تكون هذه الحياة بلا هدف ، والقرآن يذكرنا أن الله أرسل آياته لتدل على وجوده وتصرفه فى نظام وجمال الطبيعة وأحداث التاريخ ووحى الكتب المقدسة : ﴿ **قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾ (١) ، فالإنسان يمكنه إذن أن يفهم إذا فكر كما يكرر القرآن فى أحيان كثيرة ، ولكنه يمكنه أيضاً أن يرفض ذلك : ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ (٢) ، ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ (٣) ، ويجب أن نأخذ فى الاعتبار الآية الكريمة : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ (٤) ، ولا يتعلق الإكراه فقط بالإكراه الخارجى العضوى، ولكن الله عَزَّ وجَلَّ نفسه لم يكره الإنسان إكراهاً نفسياً ، ﴿ **قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ (٥) ، فلقد ترك الله للإنسان

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٨ .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٢٩ .

(٣) سورة الإنسان ، الآية : ٣ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٦ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية : ١٤٩ .

إمكانية أن يضل ، وهذه الإمكانية ليست مضمون الحرية ولكنها ثمنها.

إن اختيار المعنى وهو المضاد لاختيار العبث هو حسب القرآن التصرف العاقل . والعقل لا يهدى فقط إلى السلوك التقنى ، « وهو سلوك جزئى دائماً » ، ولكنه أيضاً يهدى إلى السلوك الأخلاقى ، «وهو سلوك شامل ومتكامل دائماً »، فالعقل إذن مرتبط بمسئولية التصرف ، والمهمة العظمى للعقل هى أن يقرأ الآيات التى أوضح الله لنا بها ما يريد ، وعندما نقول : الله ، فإننا نقول : إن العالم له معنى ، ويمكن أن نتصرف على أساس هذا المعنى : ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ [1] ، والكلمة التى يفسر بها هذا التصرف بمعنى الآيات ، وهو تصرف الذكاء المتكامل والخلاق للسلوك البشرى فى حياة متوافقة مع إرادة الله « الصراط المستقيم » هذه الكلمة هى الفعل « عقل ، ويعقلون » ، ولكن ذلك لا يعنى أبداً أنه يمكن أن يصل الإنسان إلى الله بشكل فردى ، « فابن طفيل » فى بداية القرن الثانى عشر تخيل فى كتابه « حى ابن يقظان » أن بطله توصل إلى الإيمان بالله وحده وبعقله فقط ، ولكن الإيمان لا يمكن أن يعيش بصورة كاملة فى حياة منعزلة ولا يمكن أن يولد من العقل فقط أى من عقل لم يستند بالوحى .

لقد كان هذا هو خطأ المعتزلة ، فلا يمكن أن يغنى العقل عن الوحى ؛ لأنه لا يتعارض أحدهما مع الآخر ، ولا يمكن أن يحدث

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

التصادم إلا بين عقل عاجز وقراءة سقيمة ، فالعقل العاجز ، أى الوضعى المجرد من الحكمة والوحى والقراءة السقيمة ، أى الحرفية التى تفصل كل جزء من النص عن سياقه العام .

وكل البراهين على وجود الله تقوم على استعمال للعقل بشكل يخالف الثوابت ، فالادعاء « بالحجة الكونية » ، والتى يستطيع الإنسان حسب هذه الحجة فى تنقله من سبب إلى سبب أن يصل إلى السبب الأول ، وهذه حجة متناقضة ! فالسبب فى تعريفه ليس إلا مجرد علاقة ؛ ففكرة السبب الأول هى العلاقة بين مصطلحين يصبح أحدهما غائباً ومجرداً من المعنى .

ودعوى « العلة الغائية » والتى يحتاج تنظيم الكون فيها إلى منظم، وهى دعوى ترتكز على وهم تقابلى للخلق الإلهى والإنتاج الحرفى بمعنى أن المشروع الإنسانى يستلزم طريقة أزلية فى الوجود .

وأما دعوى « العلة الأنطولوچية » أو الكونية ، فحسب هذه العلة، هناك فكرة كائن كامل ، وهذه الفكرة تستلزم فكرة وجوده ، وهذا مجرد قياس ، ولا يمكن أن نأخذ منها معرفة ، إلا فى نطاق إثبات العبور من المنطقى بالحقيقى الملموس .

ونفس مفهوم هذه البراهين العلمية على وجود الله يتعارض مع مفهوم الوحى : هذا إذا افترضنا أن الله يمكن أن نعرفه فقط بطريقة عقلية علمية « مثل تلك الطريقة التى نقنع فيها العقل بنظرية رياضية» .

ويمكن أن نستطيع بهذه الطريقة أن نتوصل إلى الله وإلى تحديد الخير والشر دون أن نحتاج أن ينير الله لنا هذا العلم بالوحى وبالرسائل

التى جاء بها أنبياؤه ، وهذا المفهوم الغربى للعلم والذى لن يلبى إلا حاجات الغرب ، ولن يهتدى بالوحى لحل مشاكلنا قاد الغرب إلى علم من أجل العلم ، وتقنية من أجل التقنية ، أى دونما غاية إنسانية أو إلهية ، ووصل به إلى الانحدار الأخلاقى والسياسى .

وهذا المفهوم أيضاً كان من دواعى « الحكمة التى زعمت أنها يمكن أن تكتفى بنفسها » ، بمعنى : أن تجعل الإنسان قادراً بفضل تدرجه من غاية إلى غاية أن يصل بقواه فقط إلى الغاية الأخيرة .

والحكمة الهندية تقول : «إن العقل ليس بحاجة إلى الوحى ليعطى للإنسان إمكانية أن يعرف كل شىء ، وأن يتماثل مع الله عَزَّ وجَلَّ ».

والإسلام حين لم يضع أى قيود لاستعمال العقل لا فى العلوم ، ولا فى الحكمة ، بل دعاه على العكس من ذلك أن يجتهد فى هذا الاستعمال ، وهو فى ذات الوقت أوضح لنا أن العلم والحكمة لا يمكن أن تصل إلى تمامها إلا حينما تهتدى برسالات الأنبياء ، ولقد علمنا الإسلام أن نقرأ بعلم وحكمة كل الآيات الدالة على وحدانية الله الخالق ، وكذلك الدالة على الخير والشر والصراط المستقيم ، وكل الأشياء الصالحة التى تتفق مع العلم والحكمة إذا كانا سيذهبان فى نفس الطريق ، أى سيتوصلان إلى الاعتقاد بأنهما لن يكونا تامين إلا فى نور الوحى ، أو ليس هذا النور هو الذى نرجوه من الله فى كل صلاة ؟

والفشل النهائى لهذه الدعاوى « البراهين » كما أوضح « محمد إقبال » ينشأ بالضرورة من نظرة للعالم تعتبر الفكر هو الوجه الخارجى للأشياء ، أى أنه انعكاس لخلقها .

والقرآن لم يفصل بين الفكر والوجود ، فهما معنيان مجردان لنفس الحقيقة : وهى خلق الله .

وفى المفهوم الثنائى للفكر اليونانى ، فإن كل صعوبات حساب الحركة والتى لخصتها معارضات « زينون الإيلى » تأتى من الخلط بين الحركة كتصرف وصورة الحركة التى نراها فى الخارج ، فالمكان ذو الفراغ المجرد والوقت ذو المقياس المكانى ؛ والنظرة القرآنية للخلق الإلهى بعيداً عن المفاهيم التجسيدية للمكان والزمان والحركة تدخل الإنسان فى ديناميكية الحياة التى يسيرها الله « الحى القيوم» فى تصرف الله للخلق ، قال الله تعالى : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ [1] .

وفى هذا العالم الذى لا يزال فى استمرار ، وهى عمل من خلق الله ، كيف يتسنى للإنسان أن يظل وحده بلا حراك ، وألا تنفك عينه مثبتة نحو الماضى ؟

فالله يوجه البشرية فى هذه الديناميكية من الخلق اللامتناهى فى الكون أجمع ، وقد عرف « محمد إقبال » بشكل يستدعى الانتباه الطريقة التى توضح للإنسان حقيقة الوجود « مبدأ الحركة فى الفكر الإسلامى » ، وهى « الاجتهاد » لنكتشف فى كل لحظة من لحظات التاريخ الوسائل لحل مشاكلنا المتجددة فى إطار من الصراط المستقيم الذى رسمته لنا الرسالة الأزلية .



(١) سورة الحجر ، الآية : ٢٩ .

الفصل الثالث

شروط نهضة الإسلام

الفصل الثالث

شروط نهضة الإسلام

« النهضة الإسلامية تقوم على الاجتهاد » هذا هو المبدأ الأساسى الذى نادى به رشيد رضا ، ووجد صداه فى باكستان مع محمد إقبال، وفى الجزائر مع الشيخ ابن باديس ، وكل هؤلاء رواد نهضة الإسلام الحى ، أى إسلام قادر على أن يكون مبدأ التغيرات التاريخية الضرورية فى عصرنا .

وعندما دعانا هؤلاء الرواد : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده، ورشيد رضا ، وحسن البنا ، ومحمد إقبال فى كتابه ذى العنوان الذى له دلالة تجعله ذا قيمة تنظيرية ، وهو « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام » ، وعندما عمل الشيخ ابن باديس فى الجزائر من تفسيراته للقرآن البوتقة التى انصهر فيها عقل الجزائر الجديد ، عندما دعانا كل هؤلاء إلى « الرجوع إلى المنابع الأولى » لم يكن ذلك يعنى أبداً الدخول إلى المستقبل ونحن نتقهقر ، بل إنهم على العكس من ذلك دعونا إلى استلهام ينبوع الروح الإسلامية الخلاقة فى مراحلها الأولى ، وبالأخص القدوة فى النبى محمد ﷺ والخلفاء الراشدين والفقهاء العظماء حتى نستعمل حكمتهم لحل مشاكل عصرنا .

وقد أعطوا تعريفاً للعالم الحقيقى والذى فى ضوء مسيرة الإسلام المبكر لم يكن يكتفى فقط بتلاوة القرآن أو جمع الحديث ، والتمحك فى المدارس الفقهية والأصولية ، ولكنه يبحث عن آيات وجود الله فى العالم ، ويذكر الناس بوحدانية الله وسموه فوق البشر وبالعلامات المميزة لاتجاهات عصرهم ، وذلك بغية تلبية نداء الله ، وحل المشاكل التى تواجه عصرهم .

الاجتهاد .. ونهضة الأمة

هذا « الرجوع إلى المنابع الأولى » يتطلب نقداً لاذعاً للتقاليد المتراكمة من جانب المفسرين الذين لم يفهموا من الكتاب إلا حروفه، كما نعى عليهم محمد عبده فى « رسالة التوحيد » ص ١٥٠ ، والشيخ محمد عبده يذكر فى الرد عليهم الآية القرآنية التى تحتقر هؤلاء الذين كانوا يحملون التوراة : ﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾[(١)] ، أى دون أن يسألوا أنفسهم عن محتواها ، وكان الشيخ محمد عبده فى نضاله ضد الحرفية عند أولئك الذين يكتفون بترديد وتقليد المفسرين القدماء تقليداً أعمى ، وكذلك الشكلية عند أولئك الذين يفسرون الإسلام فى ممارسة آلية للشعائر دون مواجهة مشاكل عصرهم .

كان الشيخ محمد عبده يحب أن يذكر الآية التى تنعى على التقليديين الذين انتهى بهم الحال إلى نسيان الوحى الإلهى ، وقلدوا

---

(١) سورة الجمعة ، الآية : ٥ .

القدماء تقليداً أعمى ، وهذه الآية هى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ [1] ، (انظر : لقمان ، الآية : ١ ، والزخرف ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣) .

وأولئك الذين يغلقون أنفسهم على ما رسمه آباؤهم بدلاً من أن يستجيبوا للاستجواب الحى من قِبَل الله عَزَّ وجَلَّ لحل مشاكل عصرهم ، فنصحهم الشيخ ابن باديس الذى حمل على التعليم فى جامع الزيتونة لأنه كان يجمع فى بداية القرن العشرين أقوال المفسرين القدماء والذين كانوا يتعاملون مع حروف القرآن كدراسة نحوية بحتة ، إن هذه (كما كتب الشيخ ابن باديس فى مجلته (الشهاب) عدد فبراير سنة ١٩٣٢م ، ص ٧١) طريقة « لهدم » القرآن ، بينما يدعى أهلها أنهم يخدمونه .

إن الاجتهاد هو الشرط الأساسى للنهضة ، وهو معرفة تمييز الأولويات والخروج من ظلام « التقليد » واتباع التوحيد انطلاقاً من القرآن « الوحى الإلهى » ، ومحاربة الوثنيات المعاصرة من علمانية وتقديس التقنية التى تتخلص من السؤال «لماذا» ، وهو السؤال عن الهدف والمعنى ، وهذه المذاهب وضعت فى خدمة الازدياد الأعمى ، وإرادة القوة ، وقادتنا إلى انتحار كوكبى ، وكذلك محاربة وثنيات الدولة والمنفعة والنظم الأيديولوچية التى تبرر تلك الوثنيات .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٠ .

وإن شريعة لا تحمل حلولاً إسلامية لتلك المشاكل التى يتوقف عليها خلاص العالم لا يمكن أن تسمح للإسلام أن يثبت رأيه حسب «الصراط المستقيم » فى خلق مستقبل ذى وجهة إنسانية وإلهية فى مواجهة إفلاس النموذج الغربى للثراء والمتعة والثقافة سواء فى نظرته الرأسمالية أو الشيوعية .

ولا يضرنا أن نلقى نظرة على تاريخ الاجتهاد فى الإسلام «المبكر»، وعلى أسباب ونتائج إغلاق باب الاجتهاد ، ولكننا بالأخص نبحث فى القرآن الإرشادات التى يعطيها لنا ذلك الكتاب عن الطريقة التى يجب أن يقرأ بها .

عندما انتقل الإسلام من مجتمع المدينة إلى امبراطورية مترامية الأطراف لم تكن للإسكندر الأكبر أو لأباطرة روما ، ومن اقتصاد تسوده المقايضة إلى اقتصاد نقدى فى سوق عظيمة مشتركة ، ومن ثقافة نسبية حبيسة الجزيرة العربية إلى التقاء مع حضارات قديمة لامبراطوريات الفرس والساسان والبيزنطيين ورثة حضارات مصر والهلليين ، وإلى إدارة الامبراطورية الرومانية جدت مشاكل لم يكن فى الإمكان استقراء حلول جاهزة لها من خلال القراءة الحرفية للقرآن والأحاديث .

فلا القرآن ولا السُّنَّة شرعا قوانين مجردة ، ولكنهما حملا حلولاً إلهية ، يمكن أن توصف فى أبسط صورها بأنها صالحة لكل زمان ومكان مع الأخذ فى الاعتبار المتغيرات الزمنية والمكانية .

ولذلك كان لا بد من إكمال المسيرة بالموازنة بين الحوادث والأخذ

فى الاعتبار التقاليد الخاصة لكل شعب ، والتى قد تكون شرائع سابقة أو قوانين معتادة ، وكذلك الأخذ فى الاعتبارِ بالصالح العام مع الالتزام فى كل ذلك بمبادئ ومقاصد القرآن والسُّنَّة .

لقد كان هذا الاجتهاد فى التفسير هو أساس عمل فقهاء القرنين الأول والثانى الهجرى ، وهو العصر الذى بلغ الإسلام فيه الذروة .

★ ★ ★

أبو حنيفة رائد الاجتهاد

وأول الفقهاء هو « أبو حنيفة » ،ولد فى عام (٦٩٩م) فى البصرة حوالى (٨٠هـ) ، وقد حاول أن يتعامل مع المشاكل الجديدة من خلال المقاصد العامة للقرآن ، واثقاً من توجهه الأساسى ومن أغراضه محاولاً أن يشرح على ضوء ذلك ليس فقط الآيات الخاصة ، ولكن أيضاً الأسئلة الواقعية التى تثار، ولم تكن لها إجابات محددة معتمداً على أن هذا الاجتهاد وجد فى حياة النبى محمد ﷺ، فعندما بعث رسول الله محمد ﷺ أحد أصحابه وهو « معاذ بن جبل » رضى الله عنه إلى اليمن سأله عن المنهج الذى سيتبعه فى حل ما يعرض له من مشاكل ، قال : أحكم بكتاب الله ، فإن لم أجد فبسُنَّة رسول الله ﷺ ، فإن لم أجد أجتهد برأيى ولا آلوا ، فوافقه النبى ﷺ .

ومن خلال ما تقدم طور أبو حنيفة القياس واستخدم عدداً قليلاً من الأحاديث ؛ لأن القرآن كلام الله والحديث كلام بشرى ، ولقد أوضح النبى ﷺ بنفسه هذا الفارق عندما اعترف مثلاً بخطئه ،

وبالمهارة الفائقة للفلاح الذى نصحه النبى ﷺ خطأً بتلقيح النخيل ، وكذلك فى غزوة بدر عندما ذكر لأصحابه أن قراراته الحربية شخصية وليست من وحى الله ، ولذلك فقد غير مكان الجيش بناءً على نصيحة أحد أصحابه ، اقترح عليه مكاناً أكثر استراتيچية من مكانه عليه الصلاة والسلام ، وهذا الفرق الجوهرى بين كلام الله والكلام البشرى يتضح فى أن النبى ﷺ لم يأمر فى حياته بكتابة كلامه الشخصى (أحاديثه) حتى لا يختلط كلام الله بكلامه صلى الله عليه وسلم .

ومنهج أبى حنيفة كما كتب محمد إقبال « يعتمد على تربية شعب يستخدمه ليكون نواة لشريعة عالمية ، ومن هذا المنطلق فإنه كان يستخرج المبادئ الغامضة للحياة الاجتماعية للبشرية ويطبقها على الحالات الواقعية مستلهماً العادات النوعية للشعب الذى يواجهه ، وفوائد الأحكام ، وهى نتيجة هذا التطبيق (مثل القواعد النسبية لعقوبات الجرائم) لها معنى محدد بالنسبة لهذا الشعب ؛ وهذه الملاحظة ليست غاية فى حد ذاتها ، ولذلك فهذه الأحكام لا يمكن أن تطبق بصرامة على الأجيال القادمة ، وهذا هو السبب الذى من أجله لم يطبق أبو حنيفة استعمال هذه المبادئ بشكل تعسفى ، فلقد كان ذا مفهوم مستنير وطبيعة متفتحة .

ولكن على عكس روح المدرسة الحنفية ، فقد خلد الأحناف الجدد مبادئ مؤسس المدرسة وتلاميذه بطريقة مشابهة لطريقة النقاد الأوائل لأبى حنيفة حين خلدوا القرارات التى صاغها لحل مشاكل حقيقية ،

والمبدأ الأساسى لتلك المدرسة أى « القياس » إنما هو اسم آخر «للاجتهاد » ، والذى يعتبر حراً فى حدود النصوص المنزلة بشرط أن يفهم ويطبق بشكل صحيح .

وتأتى أهميته من كونه مبدأ ظهر ، كما يقول أغلب العلماء مثل القاضى الشوكانى الذى أوضح أنه ظهر فى حياة النبى ﷺ ، ورفض الاجتهاد هو وهم محض من ناحية جاء بسبب بلورة الفكر الفقهى فى الإسلام ، ومن ناحية جاء من التقاعس الفكرى الذى تحول الناس فيه فى فترات الانحطاط العقلى إلى تقديس العلماء الكبار . وإذا كان بعض العلماء السابقين يشجعون هذا الوهم ، فالإسلام المعاصر ليس ملزماً بهذا التخلى الإرادى عن الاستقلال الفردى (١) .

وقد ركز الشافعى (٧٦٧ - ٨٢٠) على الإجماع ، بينما وجد فى مصر موروثاً ثقافياً يسترعى الانتباه .

وفى القرن التاسع فى قلب امبراطورية عباسية مأزومة ، حيث توقفت الثورة الثقافية التى حملها الإسلام عن الانتشار ، وحيث كانت السلطة القائمة تهدف إلى الحفاظ على الأرض فقط ، نشأ فى هذا الوقت تصلب عقائدى شبيه بذلك الذى حدث فى المسيحية إبان عهد الإمبراطور « قسطنطين » ، وإبان حكم الخليفة « المتوكل » (٨٤٧ - ٨٦١) ، وبدافع الخوف من الاختلاف أصبحت الدعوة إلى إغلاق باب الاجتهاد دعوة ضاغطة ! ففى نظام ترتبط فيه السياسة

---

(١) محمد إقبال : « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام » ، ط . ميزون نو سنة (١٩٥٥م) .

بالدين بشكل مبهم لا يمكن أن يتعرض الإنسان للدين دون أن يتناول النظام الاجتماعى ، وكنضال ضد الصوفية والتى هى تفسير غير حرفى للقرآن ، ومعارضة للسلطة السياسية ، وضد استخدام الجدل من جانب الفلاسفة اتجه علماء الدين الموالين للسلطة إلى « إغلاق باب الاجتهاد » .

وظهر هذا التيار لوقت طويل فى مناظرات طويلة الأمد حول موضوع : هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟

ولأن المشكلة وصلت إلى هذا الحد من التجديد ، فقد أصبحت غير قابلة للحل لأنه ليس لها معنى محدد باعتبار أن الله خارج عن إطار المكان والزمان .

فإن القول بأن القرآن مخلوق قاد بعض مفكرى المعتزلة أن لا يروا فيه إلا شهادة تاريخية ، وأهملوا البعد السامى ، وهو القيمة الأزلية فى الرسالة المنزلة .

وأما القول بأن القرآن غير مخلوق استناداً إلى قراءة حرفية ، فإنه يقود إلى غموض ليس أقل خطورة إن لم يكن عبثياً ، وبعض هؤلاء الحرفيين المتزمتين توصلوا من ذلك إلى القول بأن القرآن « غير مخلوق » ، حتى لو كان مادياً يشمل القرآن « الكتابة والصفحات ... إلخ » ، وهناك آخرون لم يذهبوا إلى هذا الحد اعتبروا أن لغة القرآن فقط هى « الغير مخلوقة » كما لو لم يكن تجسيداً خالصاً القول بأن الله يتكلم العربية دون السنسكريتية أو الصينية أو اللاتينية !

بينما يكرر القرآن فى مواضع كثيرة أن الله أرسل رسله كلٌ بلسان قومه.

ولقد جاء الأشعرى (ت ٩٣٥) بالقول الفصل بين هذين الرأيين المتعارضين حين فرق بين الكلام الإلهى الذى نزل به وحى الرسالة الأزلية والكلام البشرى الذى يوضحه فى كل زمان لكل شعب بلغته، و« بمستواه الثقافى » حتى يفهم هذه الرسالة : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه** ﴾ [١] ، ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب** ﴾ [٢] ، ولا على المرء إلا أنّ يندهش منّ أن تثار قضية كهذه بهذه العواصف الطويلة الأمد ، وهذه العواطف المحتقنة ، وهذا يغض الطرف عن الشكل التاريخى والسياسى لهذه المناظرة ، ففى إمبراطورية عباسية مهددة ومهمومة بتبرير شرعيتها دينياً، كان من الضرورى التمسك بتقليد ثابت وتحريم كل قراءة تهدده، وبالتالى وضع القرآن خارج تناول أى انعكاس نقدى حول تفسيره الرسمى ، وقضية القرآن غير مخلوق كانت بالنسبة للعباسيين فى نفس أهمية قضية الجبرية بالنسبة للأمويين ، والمغتصبون كانوا فى حاجة إلى ضمان « للإرادة السرية » لله ليدافعوا عن أنفسهم ضد منتقدى المسلمين الغير جديرين بسبب سلوكهم .

وكان « المشرعون » فى حاجة إلى حظر كل قراءة أخرى غير تلك القائمة على شرعية الحكام ، وليس هناك أى مذهب يمكن أن يفرض

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ٣٨ .

قراءة حرفية مثل « القرآن غير مخلوق » ، وبهذا فسر الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بمعنى محدد وهو : « رفض كل بدعة تخالف تعاليم ديننا » ، ولن يعارض ذلك رجل مؤمن حينما يتعلق الأمر بالرسالة الأزلية ، ولكن ذلك سيقود إلى الادعاء بتوقف التاريخ إذا تعلق الأمر بمنع التطبيق الخلاق للرسالة فى الظروف التاريخية المتغيرة .

وفى كل الفترات السابقة اتجه نفس علماء الدين والفقهاء التابعين للسلطة إلى حكم الأقلية واحتكار الاجتهاد ، وكأنهم موظفون مطلقو الحرية .

وهكذا أصبح ميدان الاجتهاد ضيقاً شيئاً فشيئاً ؛ لأن النظرية العقيدية أدت إلى الاعتقاد بأن كل المشاكل المثارة حلت ، وأن الإنسان لن يستخدم حكمه إلا فى أقل القليل .

وبتواطؤ الاستبداد السياسى والعقائدية الدينية التى شكلت معه ثنائية خطيرة « أغلق باب الاجتهاد » شيئاً فشيئاً ، و« إغلاق باب الاجتهاد » الذى نشأ بعد أربعة قرون من الهجرة دون أن يعلن عنه أبداً بشكل رسمى « فليس لأى مسلم سلطة أن يفعل ذلك » لم يأت أبداً من القرآن الذى يدعو دائماً إلى التفكير والبحث ، ولكنه جاء من التأثيرات الخارجية لا سيما المبادئ الاستبدادية للإمبراطورية البيزنطية إبان حكم الأمويين ، ومن الإمبراطورية الفارسية إبان حكم العباسيين .

وهذا الغلق تدعم وازداد مع انحطاط الإمبراطورية العباسية بسبب التهديدات الخارجية (غزوات المغول والحروب الصليبية) ، وتهديدات داخلية من انقلابات وفوضى .

وفى فترة الغزو المغولى والحروب الصليبية فى عالم إسلامى مهدد أدى هذا الانقباض الأيديولوچى إلى رفض فهم الآخر ، وفهم التاريخ ، وأدى إلى حكم الفرد وقصر الاجتهاد على قراءة ضيقة لخطاب القرآن لتكوين عقائدية على طريقة الهالاخاه عند الحاخامات، أو الإكليروس المتطرف عند المسيحية فى روما .

وهكذا نشأ إسلام تلمودى .

وانحسر الاجتهاد إلى أقل درجة .

فعلى سبيل المثال نجد مدافعاً عن الأسرة العباسية المنهارة هو الماوردى يرى أن الشورى [١] لا تعد ضمن واجبات الخليفة .

ولقد عم الإسلام ظلام التقليد والطاعة العمياء لرأى السلف ، ولقد اغتيلت الفترة المزدهرة للإسلام بهذه الحرفية فيما عدا بعض المناطق المحيطة به فى فارس بشعرائها العظام ومتصوفيها (العطار والرومى) ، ورساميها ونهضتها الصافادية، وفى إسبانيا مع الإشعاع الاستثنائى بجامعة قرطبة التى هربت من العباسيين ، وفى المغرب مع عملاق الفكر ابن خلدون .

---

(١) الشورى تعنى المشاورة ، وبالتالى فهى تعارض الملكية الفردية حيث يقرر الحاكم ما شاء بمفرده .

وقد قامت نهضة فى القرن التاسع عشر ، وهى نهضة السلفيين[1] ، كانت تحلم بالرجوع بالإسلام إلى قوته الخلاقة فى عصوره الأولى بإعادة تكوين الأمة بدمج التقنية الغربية مع تعاليم الإسلام .

هذه الحركة قام بها جمال الدين الأفغانى وقادها محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) ، وهو « مصلح العصر » ، ثم رشيد رضا (ت ١٩٣٥) ، وهذه الحركة هوجمت على أنها من آثار غزو بونابرت لمصر ، وهذا خلط بين التحديث والتغريب ، وهذا التناقض ظهر عندما عارض بعض المصلحين الرجوع إلى «السلطات الفقهية» من بين المحافظين ، حيث أعلنوا اقتناعهم بالعلمانية والبرلمانية عند الغرب ، وبذلك فهموا الماضى والمستقبل فهماً خاطئاً ، فعدم فهم الماضى هو شيوع تعارض التفاسير والحواشى وعلوم القضايا الضميرية لدى الكتاب القدماء بين عالم الأحياء والنداء المباشر للقرآن ، وهكذا جعلوا من الكلام الحى للقرآن كلاماً ميتاً ، وجعلوا من القرآن كتاباً للأموات .

★ ★ ★

مستقبل الإسلام

والإسلام « المبكر » أخذوا ما فيه وخضعوا خضوعاً أعمى لمتناقضات القدماء ، ولم يكن فهمهم للمستقبل بأقل خطأ من الماضى: فالتحديث بالنسبة للمسلم ليس بتقليد نماذج النمو وأنماط

---

(١) حركة إصلاحية تدعو إلى الرجوع إلى مصادر الإسلام الخلاقة .

الثقافة لدى الغرب ، والغرب كما توضح الكلمة هى بلاد الغروب . وهذه الحضارة التى يجدر بنا أن نحميها من الغرق ونصبغها بالغايات الإنسانية والإلهية التى للإسلام هى حضارة تحتضر ، وهى حضارة تنبع من الماضى مثل الإمبراطورية الرومانية ، ولذلك فمستقبل الإسلام ليس ماضى الغرب ، وقد حدث هذا الخلط على الساحة السياسية فى أعمال « محمد على » الذى كان حاله مثل الإمبراطور اليابانى الذى أسس أسرة « ميجى » ، فلم يفهم بوضوح أن التكنولوچيا ليست بريئة ، وأن كل « نقل للتقنية » إن لم يكن ذا توجه نقدى واختيارى سيقود إلى جلب نماذج تطور ومفهوم حضارة وأنماط حياة يمكن أن تضيع القدرة الفاعلة للقِيَم الوطنية الراسخة .

ولم يبق من أثر حركة التجديد هذه إلا جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا ومحمد إقبال والشيخ ابن باديس وغيرهم كثير طرحوا المشكلة الرئيسية ، والتى ما نزال نبحث لها عن حل حتى اليوم ، وهى ماذا يجب أن تكون عليه نهضة الإسلام حتى يستطيع الإسلام بنفسه أن يحل مشاكل عصر تام ، ألا يمكن بنشر الطاقة الخلاقة لعملهم أن نقترب من النهضة ، والتى لا تستهدف اليوم فقط مستقبل المسلمين ، بل خلاص العالم كله .

إن الله هو الذى أنزل إلينا القرآن الكريم ولكن البشر هم الذين يقرأونه ويفسرونه ، وهم أناس يعيشون فى تاريخ متجدد دائماً ، ولأن كلام الله خالد ، فإنه يتعين على الناس أن يستخرجوا منه الجديد فى كل وقت .

وبفضل التحلى بتلك الروح يمكن أن يحمل الإسلام إلى العالم الرسالة التى يحتاجها مع إعطاء القدوة فى تصرفاتهم وتفكيرهم ، وكل ما يمكن أن يكون مستقبلاً ذا توجه إنسانى .

هذا القانون الإلهى يسمى « الشريعة » .

وهى تنبع من مصدرين أساسيين :

- القرآن .
- السُّنَّة .

والتجديد الحقيقى يستلزم فى نفس الوقت احتراماً غير مشروط للسمو والفطنة التاريخية للحاضر .



الفصل الرابع

الشريعة القانون الإسلامى

الفصل الرابع

الشريعة « القانون الإسلامي » (١)

وهى حضور الإرادة الإلهية فى حياة الإنسان ، وفى التاريخ ذلك

---

(١) ترجمة كلمة شريعة بمعنى : « القانون الإلهى » ترجمة تقليدية لأنها إلى حد ما مبهمة ، حيث إنها مفسرة بشكل مقلد مثل التطبيق البسيط الحرفى لبعض الآيات التشريعية فى القرآن ، ومن المفيد قبل أن تخوض فى تلك المشكلة أن تتذكر الآتى :

(أ) كلمة شريعة جاءت من السُّنَّة ، ولم تأت من القرآن .

(ب) التعبير القرآنى : ﴿ شِرعة ﴾ (سورة المائدة ، الآية : ٤٨) ، معناه المعجمى : « طريق نحو عين الماء » .

(جـ) والسياق الذى وردت فيه هذه الكلمة ذو دلالة : وهو التذكير بتتابع الرسالات الإلهية من أنبياء بنى إسرائيل وعيسى المسيح ومحمد ﷺ ، وتذكر دور محمد ﷺ وهو : ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ (سورة المائدة ، الآية : ٤٨) .

(د) ثم يأتى النص الرائع : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ (والشرعة : هى الطريق الذى يؤدى إلى المنبع) ، و« الشريعة » مرادف «شرعة » لا تعنى التطبيق العشوائى للقانون الظاهرى على التاريخ ، وليست جهازاً تعسفياً فى خدمة قطاع الأيدى ، ولكنها الرسالة الإلهية فى شموليتها، وهى فى ذات الوقت نمط حياة علمته لنا الرسائل الإلهية ، وهو يلبى حاجات الأمم المختلفة ، والطريق نحو المنبع ، المنبع المشترك ، وهو الله الذى يروى جميع العطشى بحكمته وقدرته .

الحضور الذى يتجلى فى الوحى القرآنى ، وقد تحقق ذلك للمرة الأولى بواسطة النبى محمد ﷺ فى المدينة المنورة .

وميزة هذه الشريعة الأساسية هى أنها لا تفرق مطلقاً بين علاقة الإنسان بالطبيعة وعلاقته بالآخرين ، وعلاقته بالله ، وأن مصدرها الإلهى لا يستلزم مطلقاً أى جمود ، وخصوصيتها السامية وقيمها الخالدة لا تنتهى أبداً ، بل على العكس تعنى صلاحية خلاقة مستمرة.

فيجب إذاً أن نستخلص من إنجازها التاريخى المبادئ الخالدة التى تسمح لنا بارتياد الحلول لمشاكل اليوم .

والقرآن يبين لنا دائماً الغايات التى يجب أن نبحث عنها : وهى أنه من واجب البشر فى كل عصر أن يجدد الوسائل لبلوغ تلك الغايات.

ومبدأ الشريعة ليس مقتبساً من آية واحدة ، ولكن من روح القرآن جميعه ، وتتمثل الشريعة فى :

- القانون المدنى : وهو العقد والرضا المتبادل : ﴿ **عن تراضٍ منكم** ﴾ (١) .

- قانون العقوبات : وهو فردية العقوبة : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٦٤ ، وسورة النجم ، الآية : ٣٨ .

- المسئولية الشاملة : فالمسئول ليس فقط الذى فعل الجريمة ، ولكن أيضاً الذى تركه يفعلها .

- القانون الدولى : وهو وحدة الإنسانية : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة** ﴾ [١] ، وما يستلزمه ذلك من تغليب مصلحة الكل على مصلحة أمة بعينها .

ومن خلال هذه الغايات الأساسية للقرآن والتى رسمها الوحى الإلهى للإنسان ، فإن الشورى يمكن أن ترد بروح المسئولية والمبادرة الخلاقة على تحديات عصرنا ، والقرآن يحتوى على (٦٢٣٦) آية منها (٢٢٨) آية فقط مخصصة للتشريع ، منها (٧٠) آية متعلقة بالأسرة ، و(٧٠) آية متعلقة بالقانون المدنى ، و(١٣) بإجراءات التقاضى ، و(١٠) للقانون الدستورى ، و(١٠٢) للنظام الاقتصادى والمالى ، و(٢٥) للعلاقات الدولية ، و(٣٠) لقانون العقوبات [٢] .

وعلى ذلك فمجموع (٤٪) من القرآن للقانون ، و(٧٪) للعقوبات، بينما يعالج بقية القرآن قضايا الإيمان والأخلاق و« الصراط المستقيم » ، أى غايات تتبع لتنفيذ إرادة الله .

وعندما تزعم دولة مسلمة معاصرة « تطبيق الشريعة » ، فإنها تبدأ عامة بتطبيق حرفى فى تشريعها ، لا سيما قانون العقوبات (وهى أقل كثيراً من ١٪ من القرآن) ، وذلك بفصلها عن السياق القرآنى

---

(١) سورة يونس ، الآية : ١٩ .

(٢) عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه ، الطبعة السابعة ، القاهرة سنة (١٩٥٦م) ص ٣٤ ، ٣٥ .

الذى يعطينا نظرة شاملة لحياتنا وتصرفنا ، ومما لا شك فيه أن الانقطاع الجذرى عن التشريعات « الإنجليزية والفرنسية عامة » وريثة الاستعمار كان ضرورة مطلقة لأنها أعدت من خلال مفهوم للعالم وللإنسان غير مقبول لدى مجتمع إسلامى لهذا السبب الأساسى ، وهو : أنها كانت تجريداً من البعد السامى للإنسان ، واكتفت بتضييق أو توسيع الرغبات المتنازعة لمجتمع تسوده الفردية ، حيث الإنسان ذئب فى مواجهة الإنسان .

ولكن التحول الذى لا بد منه لا يمكن أن يتحقق بأن نشكل من هذه القوانين تطبيقاً حرفياً ومبشراً لقانون آخر يحقق الأهداف التى رسمها الله فى الظروف التاريخية للعالم العربى ، والتى كانت موجودة منذ أكثر من ألف عام .

والتطبيق الحقيقى للشريعة لا تفيده فى شىء تلك الحرفية الكسولة، فالشريعة تفترض أننا نجد وراء كل أمر أو تعليم من القرآن أو السُّنَّة سبب وجوده ، والمبدأ الذى استوحى منه ، والظروف التاريخية التى طبعه فيها ، وبخاصة إذا صاغ المرء كلاً من هذه التعاليم فى مجموع الوحى القرآنى ، والشريعة هى كل من سلوكياتنا الخاضعة لأوامر الله، والتى نزل بها القرآن وليست عن طريق قراءة حرفية تفصل كل آية عن التكاملية القرآنية والتاريخية التى تفسر معناه .

وهكذا يمكن أن تكون الشريعة فى كل عصر عاملاً أساسياً لتنمية حياة للمجتمع وحتى تلعب هذا الدور الهام والذى تنهار بدونه أسس

الحضارة ، فلا يمكن أن يعتبر قانون الله متوقفاً عن الحياة منذ اثنى عشر قرناً ، وحتى يعيش هذا القانون فلا بد من استلهام سلوك البشر فى كل مراحل التجربة العالمية للإنسانية ، ويمكنه أيضاً أن يقول لنا : كيف نعيش من الشرق إلى الغرب ، معتبرين الإنسانية كُلاً متكاملاً : ﴿ **كان الناس أمةً واحدة** ﴾ [1] ؛ لأنهم جميعاً خلقهم إله واحد ، وحدد لهم نفس الهدف .

لماذا لا تشرق تلك الشريعة وهذا القانون الإلهى اليوم على العالم؟ لماذا تظل الشعوب المسلمة حتى التى حررت من الاستعمار شيئاً وليست فاعلاً كاملاً ومؤثراً فى التاريخ ؟ لماذا لا يعطون القدوة فى المبادرة التاريخية ؟ لأن هذه الشريعة وهذا القانون فرغ من مضمونه وتوقف عن التطور الحى منذ القرون الأولى من تاريخه .

لأننا نقرأ القرآن بأعين الموتى .

بأعين أولئك الذين كانت لديهم عبقرية لحل مشاكل عصرهم من خلال الوحى الخالد للقرآن ، ولا يمكننا أن نحل مشاكلنا إن اكتفينا بترديد ما قالوه فقط ، ولكن باستلهام مناهجهم ، فلنرجع إلى المنابع الأولى ، ولا يعنى ذلك الدخول إلى المستقبل بتقهقر ، فعيوننا على الماضى ، ولكننا نبحث عن المصدر الحى والفعالية الخلاقة للإسلام «المبكر » ، « فالشريعة » ليست بركة راكدة ننزح منها الماء الآسن ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٣ .

فهذا خداع للعطشى الجدد ، ولكن « الشريعة » نهر متألق ومخصب لضفتيه من خلال تدفقه .

★ ★ ★

شروط نهضة المسلمين

ماذا يجب أن تكون عليه « نهضة الإسلام » حتى يُحل كل مشاكل عصرنا وهو كما هو ؟

إن نهضة الإسلام ليست ممكنة إلا إذا تحاشينا عقبة مزدوجة ، وهى:

- **تقليد الغرب .**
- **تقليد الماضى .**

وفيما يتعلق بتقليد الغرب ، فإن أسوأ شىء هو الخلط بين التحديث والتغريب ، ولم يسلم من هذا الخلط حتى أعظم المصلحين فى القرن التاسع عشر ، مثل الشيخ محمد عبده ، والذى بدأ هذه النهضة حين شبه « الشورى » فى القرآن ، وهى « تشاور المؤمنين لتحقيق أمر الله فى الحياة السياسية والاجتماعية » بالبرلمانية أو الديمقراطية الغربية .

ولكن كل ما مر فى هذا الكتاب يشتمل على كثير من التحليل لأمراض وأزمات وإفلاس الغرب ، مما يجعل رجوعنا إلى هذا الموضوع لا طائل تحته

وعلى العكس من ذلك ، فمن الملائم أن نحلل بوضوح أسباب تدهور العالم الإسلامى وأن نقول : لماذا يهاجم الإسلام اليوم بصفته الرسمية من جانب الطاعنين الغربيين الذين يجهلون وجهه الحقيقى ، ومن جانب شباب لا يرى الأمان فى التشريع والخلاص من اضطرابات الغرب والبحث عن الهوية إلا فى الرجوع إلى الأشكال القديمة للشعائرية والعقائدية والحرفية التى جمدت الإسلام لفترة طويلة.

وأكثر الأمثلة فهماً هو ذلك المتعلق بتطبيق « الشريعة » قانون الله ، ففى كثير من البلدان الإسلامية نجد جزءاً كبيراً من الشباب وعلماء الدين الذين يشعرون بالتدهور الأخلاقى والتفكك الاجتماعى والسياسى الذى انتهى بالتدخل المتنامى لأخلاق وأدوات الغرب ، والدور الخبيث لإيديولوچيات الغرب الناقصة من خلال « نقل التكنولوچيا » ، حيث لم يكن هذا النقل نقدياً ولا انتخابياً ، ولم يفصل التكنولوچيا الضرورية عن سياقها الغربى الوضعى ، آملين على عكس فساد حكامهم أن يستعيدوا هويتهم الإسلامية عن طريق تطبيقهم شريعة الله ، وليس التشريعات الموروثة من المستعمر القديم، وهذا المطلب من جانب المسلمين الذين استعمروا لفترة طويلة انتهت بقوانين ونظم حياة فرضها المستعمر القديم مطلب عادل ومشروع ؛ لأن مفهوم العالم والإنسان فى هذه التعاليم لا يتعارض فقط مع ما أوضحه القرآن ، ولكنه يقود الغرب نفسه إلى الإفلاس الأخلاقى .

أولاً : تمنع هذه التشريعات الغربية فى مبدأها الرجوع إلى الله ،

ومن ثم كل قيمة مطلقة ، حتى « إعلانات حقوق الإنسان » لم تتضمن أى ذكر لهذه الواجبات .

ثم إنها تنبع من الأفراد وتنظم « عقداً اجتماعياً » فيما بينهم ، وهو عقد كاذب فى كل المجتمع ، حيث تسود التفرقة فى الثروات والسلطات ، هذا الإلحاد وما استتبعه من فردية يتعارضان تماماً مع القِيَم الأساسية للإسلام ، وهى السمو والشمولية .

وحتى يستعيد المسلمون شخصيتهم واعتبارهم بعد التحرر من سلطة الاستعمار، فإنه من الضرورى إذاً استبعاد هذه القوانين الغريبة ، وهى غريبة على كل إنسان بمعنى الكلمة ؛ لأنه فى أى مجتمع يتجرد من فكرة الله ومن القِيَم المطلقة ، لا يشعر فيه أى فرد أنه مسئول عن كل الآخرين ، فإن كل ذلك يعد نوعاً من اللاإنسانية .

وضرورة إعادة صياغة مجموع نظم الحياة بما فيها التشريع من خلال مبادئ الإسلام ، وهى أيضاً مبادئ كل الأديان : وهى الخضوع لإرادة الله ، تتضح فى ضرورة تطبيق الشريعة ، أى قانون الله .

ولا يمكن أن تختصر الشريعة فى مجموعة تعاليم تشريعية منفصلة عن مجمل الرسالة ، وعن نظام الحياة الذى تفرضه ، والشريعة ليست قانوناً ولكنها نظام حياة ، فهى ليست قانوناً أى تشريعاً دستورياً أو جنائياً مقتبساً من آيات القرآن المنفصلة عن سياقها ، والتى كانت تطبق حرفياً (أى خارج مجموع الرسالة التى تعطيها معناها) دون النظر إلى الأزمان والشعوب التى تطبق عليها .

فعزل آية من مجموع الوحى سيكون خرقاً للمبدأ الأساسى للوحدة والتكامل «التوحيد » الذى هو مفتاح كل فكر وكل سلوك إسلامى .

والشريعة كنظام حياة تنبع من قِيَم راسخة ومطلقة مصدرها تكامل الرسالة القرآنية ، وهى نظام حياة قائم على الإيمان بوحدانية الله والعالم الذى خلق «التوحيد» ، حيث كلف الإنسان فيه أن يكون خليفة مسئولاً ، ونظام الحياة القائم على الخضوع الغير مشروط لنداء الله ، حيث يتحتم على كل فرد أن يبذل جهده لمحاولة فهم آيات الله فى نظام الطبيعة المتناسقة ، وفى أحداث التاريخ ، وفى كلام الأنبياء.

إنه قانون صارم يشمل أصعدة الحياة الداخلية والخارجية : من الممكن أن يخدع المرء شريكه فى معاملة تجارية أو ميثاق أو عقد ، ومن الممكن أن يقوم بالنصب والاحتيال فى عمله أو علاقاته بالآخرين، ومن الممكن أن يكذب زعيم سياسى على شعبه ، ولكن ليس من الممكن أن يكون المرء مخادعاً إذا وضع فى يقينه أنه يتصرف فى كل شىء تحت سمع وبصر الله : ﴿ **إنك أنت السميع العليم**﴾[1] .

إن تطبيق الشريعة لا يعنى قط قطع يد السارق بدلاً من أن نؤسس أولاً كما أمرنا القرآن مجتمعاً من العادلين لا يكون هم البعض فيه تكوين الثروات (مثل أبى لهب فى سورة المسد) بينما يعيش الباقون

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٧ .

فى بؤس لا نساعدهم فى الخروج منه كما تأمرنا آية : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ...** ﴾ (١) .

إن تطبيق الشريعة ليس هو البدء بالعقاب قبل أن نوجد نظام تربية ونظاماً سياسياً يحفظ لكل فرد معنى كرامته وحقوقه وواجباته .

إن تطبيق الشريعة هو أن نكون مسلمين ، وأن نعيش كل لحظة من حياتنا فى صفاء الله .

ولكن كل ما أعطى للشريعة من اهتمام كان فى شكل كاريكاتورى مضحك : فبدلاً من البحث فى القرآن والسُّنَّة النبوية عن الروح التى تغذى الشريعة والمقاصد التى رسمت للإنسان ، والتى من مسئوليتنا أن نصل إليها فى ظروفنا التاريخية اليوم ، فإننا بحجة « الرجوع إلى المصادر » لم نرجع إلى المصدر الحقيقى : القرآن فى شموليته ، والقدوة التاريخية لتطبيقه وهو النبى محمد ﷺ فى المدينة، ومن ناحية أخرى أغفلنا المشاكل المستجدة والتى لم تكن قد طرحت زمن النبى ﷺ ، وما تستلزمه من حلول مستلهمين الروح التى كان يحل بها النبى ﷺ وخلفاؤه مشاكل عصرهم من خلال فهم شامل للوحى .

ومن الخطأ أن نسمى « الشريعة » مجرد جزء من القرآن ، على طريقة المفسرين المهتمين بالتشريع ، وهذا اقتباس متسرع ، منشأه

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ .

الملكية الفردية للخلفاء الأمويين والعباسيين الذين كانوا قريبين من الإمبراطوريتين البيزنطية و الفارسية ، فخلفوهما بدلاً من أن يخلفوا مجتمع الرسول فى المدينة .

وخلال الحقبة الأموية حيث لوحظ انتشار « الأحاديث » بكثرة ، فإن السلطة حاولت أن تضمن استمرارها بفضل الشريعة الإسلامية اعتماداً على حجية السُّنَّة ، وخلال قرون تلاشى الفارق بين القرآن والسُّنَّة ، وأصبح الناس يأخذون القليل من القرآن والكثير من العرف، وحاول أنصار السُّنَّة شيئاً فشيئاً أن يقصروا الاجتهاد والتفسير عليهم ، وسحبوا من جماعة المؤمنين حق التصرف ، حتى جعلوه حكراً على بعض « الفقهاء » ، والذين أصبحوا شيئاً فشيئاً محافظين ومقلدين وبعيدين عن حركات التاريخ ، ومضى الحال كما لو كانت «الشريعة » قد اكتملت فى بداية العصر العباسى أى وقت تكوين المدارس الفقهية ، وما زالت الشريعة حتى اليوم مصطبغة بنظم الحياة والمؤسسات الاجتماعية فى بداية الأسرة العباسية .

ولا نبالغ إذا قلنا إن تحفظ وتقليد كثير من مدارس الشريعة هو سبب التدهور التاريخى للعالم الإسلامى .

وما يسود هذه « التقاليد » ، وهذه التفاسير ، وتفاسير التفاسير هو قبل كل شىء تبرير التسلط والقمع والتفرقة الاجتماعية ، مثل «الجبرية والقدرية » أيام حكم الأمويين وقضية « هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟ » إبان حكم العباسيين .

فمثلاً يسود اعتقاد بأن من أهم ملامح الشريعة التطبيق الحرفى للآية القرآنية : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ [1] ، وهذه العقوبة لا بد أن تؤخذ فى سياق القرآن كله حيث إن فكرة الإله الرحيم بلا حدود لا تنطبق جيداً على هذه العقوبة المتصلبة وهى قطع اليد ، ومن ناحية أخرى ، فإن الآية التالية مباشرة لهذه الآية تضيف : ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم**﴾[2] . المائدة ، آية : ٣٩ .

وعلاوة على ذلك ، فإن هذا « القانون الجنائى » يأتى فى سياق مجتمع عادل لا يكون للسرقة فيه مكان ، وبالتالى لا يكون للعقوبة معنى [3] .

ومن الثابت أن أحد صحابة النبى المقربين ، وهو عمر بن الخطاب

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٣٨ .

(٢) يخلط هنا جارودى الأوراق ، حيث إن رحمة الله بعباده تقتضى أن يحميهم من السارقين ، لا أن يحمى السارق من العدالة ، والآية الثانية تعنى أن السارق إذا تاب بعد السرقة قطعت يده أو لم تقطع ، فإن الله يتوب عليه لأن السارق قد تقطع يده فيسرق بالأخرى ، وإذا حدث وضبط قطعت رجله اليسرى ، وهكذا حسب أحكام الشريعة ، ولا يتفق ما يدعو إليه جارودى من الرحمة بالسارق مع جرائم السرقة بالإكراه التى يروح ضحيتها أبرياء . (المترجم) .

(٣) إن صح ذلك فلماذا فرضت العقوبة ؟ . (المترجم) .

علق عقوبة قطع يد السارق عام المجاعة حينما كان خليفة للمسلمين ، حيث لم يكن بإمكان السلطة أن تنشر العدالة الاجتماعية [١] .

وعلى نفس المنوال يروى النسائى وأبو داود هذا الحديث :

قال عباد بن شرحبيل : « قدمت المدينة مع أقاربى ، فنزلت حقل بر ونزعت بعض السنابل ، وأخذت منها الحب ، فجاء صاحب الحقل وأخذ ثيابى وضربنى، فذهبت أشكوه إلى النبى ﷺ ، فأرسل النبى ﷺ فى طلبه ، ثم سأله : « ما حملك على هذا ؟ » ، فرد : يا رسول الله ، إن هذا الرجل دخل حقلى ونزع بعض السنابل فأخذ منها الحب ، فقال النبى ﷺ : « لقد كان جاهلاً ولم تعلمه ، وكان جوعاناً ولم تطعمه ، رد عليه ثيابه » ، ثم أعطانى النبى ﷺ مقدار الحنطة » [٢] .

وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : « سرق عبيد لحاطب ناقة كانت لرجل من قبيلة مزينة وذبحوها (ليأكلوها) ، واعترفوا بذلك ، فأرسل عمر فى طلب صاحب العبيد وقص عليه ما حدث ،

---

(١) تعليق عمر بن الخطاب لحد السرقة لم يكن بسبب عجز الحكومة عن تطبيق العدالة الاجتماعية ، ولكن انطلاقاً من حديث : « ادرؤوا الحدود بالشبهات » ففى عام الجماعة انعدم القصد الجنائى ، وهو أحد أركان الجريمة ، وهذا اجتهاد من سيدنا عمر بن الخطاب يحسب له . (المترجم) .

(٢) هذا الرجل الذى ترك الرسول ﷺ عقابه كان حديث عهد بالإسلام هذا من ناحية ، وكان على جارودى أن يذكر سياق الحديث ، فربما كان قبل آية القطع ، كما أن السارق كان يمكن له أن يطلب الطعام بصدقة . (المترجم).

ثم أمر بقطع يد العبيد ، ولكنه تراجع . وقال لصاحب العبيد : كان علىّ أن أقطع أيديهم ، ولكنى أظن أنك تركت عبيدك جوعى حتى أدى بهم هذا الحال إلى فعل ما حرم الله ، ولكن حيث إنك الذى جوعت عبيدك فأقسم بالله لأعاقبنك بشدة ولأجزينك جزاءاً وفاقاً ثم سأل عمر صاحب الناقة عن ثمنها ، فقال الرجل : حتى لو أعطانى فيها أربعمائة درهم فلا أقبل ، فقال عمر لصاحب العبيد : إعطه ثمانمائة درهم » .

وقد وردت هذه القصة فى « موطأ » الإمام مالك . هذه الأمثلة يجب أن تساعدنا فى الاقتناع بأن الادعاء بتطبيق الشريعة عن طريق قطع يد السارق هو البداية من النهاية : فأول مهمات أى مجتمع هى أن يحاول الامتثال لشرع الله الذى يعتمد على القضاء على الظروف الاجتماعية التى تدفع إلى السرقة ، أى كل أشكال الظلم الاجتماعى والبؤس .

ولو بدأنا بالقمع فلن يكون الضحية إلا الفقراء ، ولو قطعنا لهم أيديهم فسيكون من المستحيل عودتهم لحياتهم الطبيعية فى المجتمع عن طريق العمل ، وهذا الامتهان وهذا الزجر المتصلب سيطول المحرومين ويترك الذين يجمعون الأموال (سورة المسد) ، ويواصل عمله فى التفرقة الاجتماعية واللامساواة ، وسوف يكون هذا فعلاً يتحدى عدالة الله ورحمته الواسعة (١) ، ولا يتعارض فى شىء مع

---

(١) هنا يثار سؤال : هل نعطل قانون العقوبات الإسلامى حتى يتحقق الفردوس العادل الذى ينشده جارودى أم نطبقه مع مراعاة الحالات التى ينعدم فيها القصد=

روح القرآن بقدر تطبيق نظام العقوبات قبل أن يسود العدل الاجتماعى .

ولقد كان القرآن صريحاً حول هذا الموضوع ، فأدان بشدة ﴿ **الذى جمع مالاً وعدده** ﴾ [1] ، ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ [2] ، وقد توعدهم بعقوبة النار ، وقد نظم القرآن والسُّنَّة إعادة تنظيم الثروات : فحدد القرآن « الزكاة » والتى ليست مجرد صدقة تطوعية، ولكنها حق معلوم ليس على الدخل فحسب بل على الثروة ، وحددت السُّنَّة مقدارها عامة بـ (٢٫٥٪) على النقود غير المستثمرة باستثناء وسائل الإنتاج ، وبحساب بسيط تكتشف أنه بهذا المعدل فإن الثروة يمكن أن تنفذ كلها خلال (٤٠) عاماً ، أي خلال جيل ، وهكذا لا يمكن لأحد أن يعيش عالة على المجتمع معتمداً فقط على الثروة التى ورثها عن أبويه .

وفى بلد تطبق فيه تلك التعاليم بصرامة سيسود قانون الله على المستوى الاقتصادى والاجتماعى ، وهو « الشريعة الحقيقية ، ولا يمكن ساعتها أن يكون السارق سوى (فرد مريض) لأنه لن تكون هناك حاجة تدفعه إلى السرقة .

باختصار فإن أول شرط لئلا نتعلق فى قراءة حرفية هو أن نبحث

= الجنائى ؟ أعتقد أن الإجابة سهلة إذا وضعنا فى الاعتبار سارقى الملايين والمليارات الذين لا يشتكون بؤساً ولا يعانون فقراً . (المترجم) .

(١) سورة الهمزة ، الآية : ٢ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ .

فى القرآن نفسه بعيداً عن رواسب اثنى عشر قرناً من التفسيرات ، ومن المذهبية والشكلية ، ومن اختصار الرسالة فيما كانت تلائمه منذ العصور الأولى ، أن نبحث فى القرآن نفسه فى شموليته وفى روحه.

ومهما يكن ثراء سُنَّة النبى محمد ﷺ وكلام المفسرين والفقهاء فى الماضى ، ومهما بلغ من احترامنا لتلك التجربة التى نستلهمها ، فلا يمكن أن نضع القرآن مع هده الأشياء جنباً إلى جنب ؛ لأنه هو الكلام الإلهى ، والسُّنَّة هى الكلام البشرى ، وليس لنا الحق أن نخلط الكلام الإلهى بالكلام البشرى .

والقرآن نفسه يوضح لنا هذه المسافة ، وهذا الخضوع قائلاً : إنه بخلاف ما أنزله الله على الرسول ، فإنه ﷺ بشر مثل كل البشر : ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ [1] .

★ ★ ★

(١) سورة فصلت ، الآية : ٢٥ .

الفصل الخامس

السنة

الفصل الخامس

السنة

وهى بعد القرآن ، المصدر الثانى للتشريع الإسلامى .

ومن المناسب أن نفرق بين « سُنَّة الله » أى : تاريخ تدخلاته سبحانه وتعالى فى حياة البشر بتتابع رسالات الأنبياء [1] ، وسُنَّة الرسول ﷺ هى مجموع أقواله التى أدلى بها « خلاف ما نزل من الوحى » ، وأفعاله التى قام بها وأفكاره التقريرية ، أى : تعاليمه التى يمكن أن نستخرج منها ما استخرجه الفقهاء لا سيما أصحاب المذاهب الأربعة المعروفة لدى المسلمين السُّنَّة (الأحناف ، والمالكية، والشافعية ، والحنابلة) ، حين قرروا أن يستخرجوا أحكاماً لحل

---

(١) من الملاحظ أن كلمة سُنَّة نفسها والتى توجد (١٢) مرة في القرآن (٢ مجموعة) حينما لا تعنى فقط عرف السابقين (سورة الأنفال ، الآية : ٣٨ ، سورة النساء ، الآية : ٢٦ فى صيغة الجمع) ، فإنها تستعمل بمعنى سُنَّة الله، أى : طريقة تصرف الله (سورة الإسراء الآية : ٧٧ ، سورة الأحزاب ، الآية : ٣٨ ، ٦٢ ، سورة فاطر ، الآية : ٤٣ ، سورة غافر ، الآية : ٤٥، سورة الفتح ، الآية : ٢٣ ، سورة آل عمران ، الآية : ١٣٧ فى الجمع) أى: تتابع رسالة أنبيائه .

مشاكلهم ، والتى لم يعط القرآن أو سُنَّة النبى ﷺ لها إجابات صريحة ، فالمشكلة هى تكوين فكر للقرن العشرين من خلال هذه الأمثلة .

والسُّنَّة مصدر قيم جداً ؛ لأنه من الضرورى أن نستخلص من خلال ما نعلم من الذين رأوا الرسول محمد ﷺ رأى العين ، وهم صحابته ، وبفحص التاريخ والمثل والمبادئ التى قادت النبى محمداً ﷺ فى حكم الأمة بالمدينة على المستوى السياسى والاجتماعى والاقتصادى والأخلاقى حتى نستلهم من ذلك بدورنا حسب ظروفنا التاريخية ، كما فعل أبو حنيفة حينما أصبح الإسلام إمبراطورية ، حتى لا يكون المفهوم السموى للإنسان ملتبساً ، وحتى تكون العلاقات الإنسانية بين أفراد الأمة بحيث يصبح كل عقد مثل الذى يسمى « سراً » لدى المسيحى ، وهذا هو الدور الدائم للشريعة .

وعلى العكس من ذلك ، حينما توجد أحاديث متعلقة بتفاصيل دقيقة للحياة اليومية للنبى ﷺ ، فإنه من المضاد لروح ونص القرآن أن نعمل من كل أقوال النبى محمد ﷺ ، ومن كل أفعاله ، وكل ما قرره قاعدة ملزمة فى سلوكنا [1] .

وفى مرات كثيرة فى القرآن يذكر الله نبيه ﷺ أنه فيما عدا الوحى

---

(١) قد يكون فى سلوك النبى ﷺ اليومى ما يعد قاعدة أساسية مثل : أذكار الصباح والمساء ، وطريقة مشيته ، وغير ذلك ، فإن لم يعد ذلك واجباً فهو أدب نبوى يثاب المرء على فعله . (المترجم) .

المنزل بأنه على عكس دعاوى النصارى بتأليه المسيح ، فإن النبى ﷺ بشر مثل بقية الناس : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ [(١)] .

وكما كتب ابن خلدون [(٢)] فإنه « من المفيد أن نعلم أن العلماء الكبار لم يكونوا يعرفون كلهم السُّنَّة كاملة ، فأبو حنيفة لم يرو غير ١٧ حديث ، ومالك روى ٣٠٠ حديث فى الموطأ ، وذكر أحمد بن حنبل فى « المسند » [(٣)] ٣٠٠٠٠ حديث .

ولقد أمرنا القرآن بطاعة النبى محمد ﷺ (آل عمران ، آية : ٥٠، والنور ، آية : ٥٤) حتى نفلح ، ولكن ليس من الممكن أن نبرر من خلال ذلك وجوب تقليد محمد ﷺ حتى فى التفاصيل الدقيقة لحياته .

ويمكننا أن نشك فى أهمية الحديث الذى عنوانه « الشريعة المتعلقة بجدائل المرأة التى تستحم ... حيث روى كمبدأ معيارى ذلك الحديث لعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، حيث حكت: « أن النبى ﷺ لم يطلب منها فك جدائلها وهى تستحم » [(٤)] .

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ١١٠ ، وسورة فصلت ، الآية : ٦ .

(٢) مقال حول تاريخ العالم (المقدمة) ، ترجمة فانسان مونتى (الجمعية اللبنانية لترجمة الروائع ، بيروت سنة ١٩٦٨م ، ٢/٩١٨) .

(٣) وقد قال أحمد بن حنبل نفسه عن مسنده فى الحديث : « هذا الكتاب هو المختار من مجموع ٧٥٠٠٠ حديث ، ومن باب المقارنة نذكر أن أكثر علماء الحديث تقديراً ، وهو «البخارى» جمع ٧٢٠ (أقل من ١٪ من مسند الإمام أحمد) مع الوضع فى الاعتبار تكرير (٣٠٠٠) حديث .

(٤) تأتى أهمية حل الجدايل أثناء الاستحمام أو عدم حلها من أنها تتعلق بأحكام=

ومن ناحية أخرى يقال لنا : « يجوز أكل الجراد » ، ولكن « لا يجوز أكل تمرتين مرة واحدة » لأن بلة بن سهيم قال : إنه سمع ابن عمر يقول : إن النبى قال ذلك . وأسوأ ما فى ذلك ليس فى التحمس لعدم حذف أى شىء من جانب كتاب الحديث المشهورين ، ورواية الثانوى بجانب الأساسى ، ولكن الخطير هو فى عدم إعطاء مقاييس ومعايير لتمييز الأساسى من غيره ، والذين يزعمون « تطبيق الشريعة » يدعون اقتفاء أثر كل الشعائر والأعراف ، وبالأخص القواعد التعسفية قبل إقامة العدالة الاجتماعية ، والحد الأدنى من التفرقة فى توزيع الثروات وازدياد الفقر ، وكل الأشياء التى تشرح بصورة أفضل إرادة الله فى العقوبات الجنائية من الورع المزور وحرفية الشعائر الخالية من الروحانية .

وفى كتابه « الدور القيم للمسيحية والإسلام فى العلم والحضارة»[1] يعلن الشيخ محمد عبده صراحة أنه « فى حالة التعارض بين العقل والسُّنَّة يكون القرار للعقل» ، والأكثر من ذلك عندما يحدث تعارض بين حديث وآية قرآنية ، فمن السهل أن نفصل بين الاثنين .

فعلى سبيل المثال عندما يقول حديث : إن النبى نسخ الأديان

= غسل الجنابة ، وليست من الأشياء الثانوية كما يزعم جارودى ، فالطهارة شرط الصلاة . (المترجم) .

(١) المقصود كتاب « الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية » ، وفى الحقيقة قد بيَّن الإمام محمد عبده أنه ليس للمسيحية دور قيم فى العلم أو المدنية ، بل على العكس قد أثبت هذا الدور للإسلام ونفاه نفياً تاماً عن المسيحية .

الأخرى ، بينما يقول القرآن : إنه لم ينسخها ، بل إنها أكدها ، وإنما استبعد فقط ما كان فاسداً منها .

وبالنسبة إلى اليهود والنصارى فإنه يقول : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] .

ثم يضيف : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ [2] ، والنص الأساسى وهو سورة الإخلاص ينكر مفهوم التثليث فى الفكر المسيحى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [3] .

ومن الجدير بالذكر حتى نستبعد أى خلط بين التثليث وعبادة ثلاثة « والتى هى ضرب من الوثنية » أن نذكر أن المجمع الدينى الرابع فى « لاتران » ، والذى أدان فى (١٢١٦) نظرية التثليث للأب يواقيم قس « فلورا » هذا المجمع قد استخدم فى تعبيره الحرفى نفس الألفاظ التى استخدمتها سورة الإخلاص ، وذلك لتعريف وحدانية الله بأنها «وحدها مبدأ كل شىء ، ولا يوجد شىء فى خارجها ، ولم تلد ولم تولد ، ولم تصدر عن أى شىء آخر » .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٦٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٧٣ .

(٣) سورة الإخلاص كاملة .

وقد أوضح القرآن بما فيه الكفاية تفنيد هذا الانغلاق ، فقال : **﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾** [(١)] .

وكذلك حارب القرآن كل امتياز وكل اصطفاء لجماعة دون غيرها، فعلمنا مبدأ : **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾** [(٢)] .

وقد استبعد النبى محمد ﷺ فى « خطبة الوداع » بنفس الصرامة كل الموروثات القبلية والعنصرية ، فقال : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

ولكن بصرف النظر عن التطابق الكبير ، فإن الفرق بين القرآن وكتب الحديث هو فى الأهمية التى يوليها كل منهما لملامح المذهب الدينى المتعددة ، ففى القرآن نجد أغلب الآيات مخصصة لموضوع الإيمان ، بينما تناقش الشعائر بكثير من التحرر مثل : **﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾** [(٣)] .

وحتى فى الأضاحى يقول : **﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾** [(٤)] .

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٤ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ .

(٤) سورة الحج ، الآية : ٣٧ .

إن إحدى مآسى الإسلام قد تكون فى : أنه منذ أكثر من ألف سنة ظهر اتجاه لمحو الحدود بين الكلام البشرى والكلام الإلهى (١) .



(١) إن القرآن لم يتكلم عن الشعائر بكثير من التحرر كما زعم جارودى ، فقال مثلاً عن الصلاة : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ، وقال عن الأضحية : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ ، وهكذا وإذا كان جارودى يقصد بالكلام البشرى السُّنَّة النبوية ، فقد أوضحنا موقف المسلمين من حجية السُّنَّة ، وملخصه : أنها المذكرة التفسيرية للقرآن ، فمنها عرفنا مواقيت وأركان الصلاة وعدد ركعاتها ومناسك الحج ، وكل الشعائر التفصيلية. (المترجم) .

الفصل السادس

حول قراءة القرآن

الفصل السادس

حول قراءة القرآن

إن القرآن نفسه يعطينا مفاتيح قراءته ومبادئ تفسيره التى تعتمد فى نفس الوقت على معنى الكلام ، وتطبيق مبادئ لحل المشاكل التى تستجد، فهو يذكر ويكرر فى مرات كثيرة ثلاث قواعد أساسية وهى:

- الله يتحدث إلى الإنسان بالأمثال والتشبيهات .
- ولا يعطى أوامر مجردة ، بل أوامر وأمثلة حية من التاريخ .
- القرآن لم ينسخ الكتب السابقة ولكنه استبعد منها المحرف وأكملها لتكون صالحة لكل الناس ، ولتوجه البشر فيما يستجد من حياتهم .

١ - الله يتحدث إلى الإنسان بالأمثال :

يقول الله تعالى : ﴿ **كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ (١) .

﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٥ .

﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ، هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

وقد تكررت هذه الأمثال مرات عديدة (البقرة : ٢٦٦ ، إبراهيم: ٢٤ ... إلخ) ، وباختصار : فإن الله **﴿ أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾** (٢) .

هذه الرمزية تنبع من سمو الله عَزَّ وجَلَّ .

وهذا شرط أساسى لكى نتخلص من تحريفات القراءة الحرفية التى فرغتها العقائدية من مضمونها خلال عشرة قرون من الجمود : « فلا يجوز أن نخلط ما هو تشبيه لتوضيح معنى ، وما هو كلام تاريخى يعد إجابة مباشرة على سؤال ، فالله يقول فى القرآن : **﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾** (٣) .

فالله بعيد عن كل إدراك حسى ، وعن كل تحديد ، وكل مفهوم يمكن أن يزعم إدراكه ، وكل كلام بشرى لا يمكن فى معرض حديثه

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٣ .

عن الله أن يدرك تشبيهات بعيدة أو استعارة غير ملائمة أو رموز غامضة وغير واضحة المعنى .

إن أحد أعمق مفسرى القرآن ، وهو « الزمخشرى » فى معرض تفسيره للآية ٣٥ من سورة الرعد ، حيث شبه الجنة بحديقة ذات ماء عذب ، كتب أن هذا تشبيه يقرب الصورة بعض الشىء من أذهاننا ، ولكن صورتها الحقيقية لا يمكن أن ندركها .

والزمخشرى يعرض هكذا مبدأ أصول الدين والتفسير : الله لا يمكن أن يحاط به أو يدرك ، ولا يمكن من باب أولى أن « يوصف ».

والله باعتباره لا يمكن وصفه عز وجل بشىء ولا يقارن بشىء ، ولا يمكن أن يوضع فى حيز مثل الأشياء حسب الزمان والمكان ، فإنه سبحانه يجل عن الوصف بلغة البشر علمية كانت أو نفعية .

وعلم التوحيد كله لا يمكن إلا أن يكون شاعرياً ، ليذكرنا بالله وحضوره فى كل شىء ، وهو ليس برهاناً على وجود الله بل استحضار لوجوده عَزَّ وجَلَّ .

والوحى الذى هو بمثابة تصرف الله فى تاريخ وحياة البشر ، أى أنه نوع من العلاقة بين الله والإنسان ، أو حركة الله نحو الإنسان كما أن الصلاة هى حركة الإنسان نحو الله ، هذا الوحى يمارس حسب نص القانون اختراق ما لا يمكن تجاوزه وهو السمو ، ولا يمكن لأحد مثل الإنسان أن يتحدث عن الله إلا بالاستعارة ، فالله يخاطب البشر بالأمثال والآيات التى يجب على الإنسان أن يفك رموزها ويفهمها ،

وهذه الآيات يمكن أن تكون حدثاً ، أو ظاهرة طبيعية ، أو بشراً ، أو آية من القرآن الكريم ، وهذه هى اللغة التى يكلمنا الله بها .

وفى كل مرة نتصفح القرآن بعزله فى معناه الخارجى الحرفى ساهين عن سمو الله وناسين أنه يمكن أن يتحدث بالرمز والاستعارة والأمثال، فإننا لا نكون مخلصين للكلام القرآنى : إننا نظهر فقط عجز ذكائنا البشرى تجاه القرآن .

وأوضح الشيخ محمد عبده فى « رسالة التوحيد » فى هذا الموضوع ص ٧ : « إن القرآن أعطى الله صفات قريبة جداً من التجسيد الذى ذكرته لنا الأديان السابقة ، من ذلك أنه من بين الصفات البشرية صفات لله لها نفس الاسم ، وتقريباً نفس المعنى : مثل القدرة والإرادة والسمع والبصر ، إن القرآن يصف الله بنفس الخصائص التى تتشابه مع صفات البشر ، مثل استوائه على العرش سبحانه وكونه عَزَّ وجَلَّ له وجه ويدان .

« والقرآن لا يسمح بالاستحالة المنطقية . . . ولكن حتى لو بدا فى الظاهر أن هناك أشياء تبدو متناقضة ، فإن العقل يجب أن يقول : إن المعنى الظاهر ليس هو المقصود » .

عندما تقرأ الآية : ﴿ **يد الله فوق أيديهم...** ﴾ [(١)] ، فهل نستنبط من ذلك أن لله يداً ؟ أو أنه رحيم رحمان ، وأننا نعتبر ذلك منه سبحانه مثل حرارة اليد التى تحب وتغفر ، ومثل رقة اليد التى توجهنا إلى الصراط المستقيم ؟

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .

عندما نقرأ فى القرآن : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [١] ، فهل نجعل الله فى حيز من الفضاء أو نشعر به موجوداً فى كل شىء وحتى بيننا كما لو لم نكن نحن إلا لمعاناً لجمرة ؟

وعندما نقرأ قول الله تعالى : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [١] ، فهل نحدد الله في مكان أو نستشعر وجوده في كل شيء وفي داخل أنفسنا ، كما لو لم تكن إلا بريقاً لجذوته ؟

وأوضح مثال على هذه القراءة للقرآن هو مثال سورة الإسراء فى (١١١) آية ، تسع الوحى الكامل عن الإنسان والعالم والتاريخ ، وهى نظرة شمولية للواقع يسوقها الله إلى نبيه ﷺ : وهى كل الملحمة الإنسانية التى لخصتها رسالات الأنبياء والمصدر الوحيد لهذه الرسالات ، وكشف عن معنى معركة البشر ضد اضطرابات العالم والبشارة بالخبر السعيد والبعث باعتباره ﴿ خلقاً جديداً ﴾ [٢] ، وهذا ما ألقاه الله إلى محمد ﷺ من الوصايا الاثنى عشر ، كما أوحى إلى موسى بالوصايا العشر .

وبخلاف السور الأولى « سورة الفاتحة وسورة الإخلاص » ، لا يوجد أى تكثيف قوى للرسالة الإلهية حول وحدة الله ووحدة العالم الذى خلقه الله ومكان الإنسان ، ومعناه فى هذه الرؤية التكاملية ، ذلك لأنه لا بد من رؤية عليا كما يقول نص القرآن : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ [٣] ، وهو صعود روحانى معجز

---

(١) سورة ق ، الآية : ١٦ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٤٩ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٦٠ .

وضعه الخيال الشعبى للشعراء ورسامى المنمنمات الكبار خاصة رسامى مدرسة « حران » فى فارس وأصفهان ، مضيفين دائماً كثيراً من التفاصيل فى تصعيد معجز : وهو تحرك مضىء ينبعث من الحضرة الإلهية .

وينصحنا حميد الله فى كتابه « حياة النبى محمد ﷺ » (الجزء الأول ص ١٣٤) بقراءة هذه الألوان من الوصف باعتبارها تجربة روحية ، وليس باعتبارها قصة ترفيهية ، ومن الملفت للنظر أنه عندما أراد « دانتى » أن يكتب قصيدة طويلة توضح النظرة المسيحية للعالم ، فإنه استعان فى كتابه « الكوميديا الإلهية » بحركة رحلة الإسراء والمعراج ، تلك التى عرفها من كتاب « الإسراء » لمحيى الدين بن عربى ، والذى كتب قبل قصيدة « دانتى » بأكثر من ثمانين عاماً ، وترجع إلى اللاتينيين .

وكون الأمر يحتاج إلى تجربة روحية وليس إلى معجزة انتقال جسدى لا ينبع فقط من آية هذه السورة الذى سمته « رؤيا » ، ولكن من أن القرآن كله يعلن أنه ليس لأى مسلم إلا معجزة واحدة فى حياة النبى ﷺ هى القرآن الكريم نفسه واستبعاد كل معجزة عداه حتى يؤكد رسالته الإلهية ، وقد رد القرآن على الذين أرادوا من النبى ﷺ معجزات ليؤمنوا به بقوله تعالى : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ءايات من ربه ☆ قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم**

يؤمنون﴾[1] ، هل لا بد أن نكرر أن الله ليس فى مكان ولا زمان؟[2] ، ماذا يمكن أن يضاف إلى معناه الروحى لو أن تصويراً فوتوغرافياً يشهد بالحقيقة الجسدية لرحلة الإسراء ؟ إذا لم يكن هذا كافياً لإقناع كفار مكة الذين كانوا يقولون بلهجة ساخرة : « هل رأى الله كما هو ؟ هل الله موجود خلف سدرة المنتهى ؟ » ، بينما يقول القرآن : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾[3] ، وحتى عائشة نفسها تشهد أن النبى ﷺ نفسه قال : إنه فى مكان محدد بسدرة المنتهى كما تكلم القرآن عنها فى (سورة النجم ، الآية : ١٤) ، رأى ﷺ جبريل عليه السلام وليس الله الذى لا يتكلم مباشرة مع البشر، ولا يمكن أن يراه الإنسان لأنه عزَّ وجلَّ « نور على نور » ، نور بحيث يصبح كل شىء بالنسبة له مرئياً دون أن يكون هو نفسه مرئياً فى خارج الأشياء التى يضيئها .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان : ٥٠ ، ٥١ .

(٢) يريد « جارودى » من خلال ما تقدم أن يثبت بعض الأشياء المغلوطة ، ومنها أن الإسراء كان بالروح فقط لا بالجسد ، وهذا قول مردود عقلاً ونقلاً ، أما العقل فلأنه ﷺ لو أسرى به روحاً لما أنكر عليه كفار مكة ذلك قائلين : أتزعم أنك أتيت بيت القدس ورجعت فى ليلة واحدة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ذهاباً وإياباً ، فما معنى ذلك الاعتراض لو كان الإسراء بالروح فقط ، ومن النقل قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ ، وكلمة بعبده تجمع بين الروح والجسد ، كذلك يزعم « جارودى » أنه ليس للرسول ﷺ معجزة إلا القرآن ، وهو بهذا لا يعترف بل ويعارض أحاديث صحيحة فى البخارى من انشقاق القمر ، ورد عين قتادة ، وحنين الجذع ، وغير ذلك ، ناهيك عن أن الإسراء معجزة كبرى . (المترجم) .

ولن يفيدنا فى شىء دون أن نتذكر شهادة الصحابة الذين رووا الأحاديث ، فليس هناك سبب لوضع هذه القصص موضع الشك !، وحينما سئل معاوية بن أبى سفيان عن رحلة الإسراء والمعراج رد قائلاً: « إنها رؤية حقيقية من الله » . وماذا يمكن أن تفقد هذه الرؤيا من عظمتها إن كانت رؤيا منامية ؟ ألم ينزل أول وحى على النبى ﷺ رؤيا منامية فى غار حراء ، كما رأى إبرهيم فى منامه أنه يذبح ولده (سورة الصافات ، الآية : ١٠٢) [١] .

ومن غير المفيد إذن أن نرجع إلى الأحاديث التى تروى شهادة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها التى تقول : « إن جسد نبى الله لم يفارق فراشه ، فقد أسرى الله به بروحه فقط » (لقد كانت عائشة صغيرة جداً مما يتعذر معه أن تشهد بنفسها هذا الحدث ، ولكن باعتبارها زوجة النبى ﷺ فقد استطاعت أن تسأله عن هذه الرؤيا وهى أحد أوجه العظمة فى حياة النبى ﷺ) .

---

(١) القول بأن الوحى كان ينزل على النبى ﷺ وهو نائم يعرض الرسالة برمتها للطعن والشك ، والمتفق عليه بين جمهور العلماء أن الوحى كان ينزل على النبى ﷺ وهو فى حال اليقظة ، ولم يكن النبى ﷺ يذهب إلى الغار لينام فيه ، بل ليتعبد ولو كان رأى ما رأى من نزول جبريل وضمه إليه بشدة فى منام لما رجع مسرعاً إلى بيته ، وقال : « زملينى » .
وأما عن رؤيا سيدنا إبراهيم فإنها ابتلاء من الله لقوة إيمانه ، حيث اختار الله لهذا الوحى الرؤيا حتى يختبر الإيمان المطلق لإبراهيم وخضوعه لإرادة الله وذبح ولده ، حتى لو كان الوحى فى المنام ، إذن فتلك حالة خاصة ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ ولم يقل مناماً . (المترجم) .

أو شهادة ابنة عمه ﷺ هند بنت أبى طالب ، والتى نام عندها النبى ﷺ فى تلك الليلة التى حكى فيها رؤياه بعد أن استيقظ بعد صلاة الفجر .

فهذا غير مفيد لسبب رئيسى : فنفس فكرة الذهاب للبحث عن الله فى أى مكان على الأرض أو فى السماء تتناقض مع كل ما حكاه لنا القرآن عن الله الذى لا تحيط به الأطر المجسمة لا فى المكان ولا فى الزمان : فهو ليس فى المشرق ولا فى المغرب ، بل إنه : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم** ﴾ [(١)] ، فهو سبحانه كما قال عن نفسه : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ [(٢)] ، وهو أيضاً سبحانه القائل : ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة** ﴾ [(٣)] ، وكما قال : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم**﴾[(٤)] ، إذن فبأى ضلال يمكن لمسلم أن يبحث عن الله فى مكان محدد ؟

إن هذه الحرفية القاتلة يمكن أن نتحاشاها إذا لاحظنا تعاليم القرآن عن الطريقة المناسبة لقراءته .

فالقرآن مثله مثل التوراة يحتوى على تاريخ تدخلات الله فى حياة

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١١٥ .

(٢) سورة ق ، الآية : ١٦ .

(٣) سورة المجادلة ، الآية : ٧ .

(٤) سورة الحديد ، الآية : ٤ .

البشر ، وهو تصرف الذات الإلهية فى الزمن من المطلق إلى النسبى، ذلك التصرف الذى يظهر دائماً فى لحظة معينة من تاريخ البشر ، ويتضح فى الرسالات المقدسة حسب لغة ومستوى فهم هؤلاء البشر، ولا يتطلب الأمر إذن نصاً تجريدياً غير متعلق بالزمن ، ولكن يحتاج إلى أمثلة تاريخية حقيقية بطريقة يجب من خلالها الرد على موقف تاريخى معين من خلال مبادئ أزلية نزلت بها الرسالة الإلهية .

★ ★ ★

الله يتحدث إلى الإنسان عبر التاريخ

(أ) يوضح لنا القرآن نفسه أنه أعطى أمثلة وإيضاحات حقيقية لمبادئ يتعين علينا ألا نقرأها قراءة سلبية ، ولكن أن نفكر من خلال هذه الأمثلة لاستخراج القاعدة : ﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون** ﴾ [1] ، ﴿ **يا أيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم** ﴾ [1] .

(ب) ومن ناحية أخرى فإن الله أرسل إلى كل أمة رسالة بلغتها: ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ [3] ، ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً** ﴾ [4] ، ولقد أولى مفسرو القرآن الأوائل مثل « الطبرى » ، ورواة الأحاديث عناية للسياق التاريخى المرتبط بأحداث دقيقة لحياة

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٧ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١٠٥ .

(٣) سورة فاطر ، الآية : ٢٤ .

(٤) سورة النحل ، الآية : ٣٦ .

النبى ﷺ ولكل آية منزلة ، وكان الأمر يستلزم دائماً إجابة حقيقية من الله على كل سؤال يعرض للنبى ﷺ من أمته ، وهذه التاريخية لا تلغى إطلاقاً شيئاً من القيمة العالمية الخالدة للرسالة : فكل تدخل للعناية الإلهية فى حياة الأمة الدينية فى مكة أو فى حياة الأمة الدينية السياسية فى المدينة يشتمل على مبدأ سلوك يصلح لكل البشر وكل العصور ، ولكن بشكل نوعى مرتبط بظروف كل فترة وكل بلد .

فحينما يتحدث القرآن عن معاملة العبيد حينما يقول مثلاً ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك** ﴾ (١) ، هذه الآية نزلت فى مجتمع كان يوجد فيه عبودية ، فهل تفقد قيمتها فى مجتمع لم تعد فيه عبودية ؟ كلا إنها تفقد بالضرورة شكلها التاريخى وتحتفظ بكل قوة التذكير الخالدة، وهى أن قيمة الإنسان لا تتوقف على منزلته ولا على ثروته ، ولكنها تتوقف على تقواه وفضله ، وهذا يعنى أن قراءة القرآن لا يمكن أن تكون كافية بالطريقة الحرفية ، وفى كل مرة يتضح مبدأ السلوك فى اللغة النوعية وفى الظروف الخاصة لفترة الوحى يجب أن نستخرج المبدأ الحى من الخطاب الماضى « القرآن » ، أو بمعنى آخر حتى نطبق الشريعة الإسلامية لا يمكن أن نكتفى باستعمال الاستقراء ، ولكن أيضاً بالقياس .

ففى مجتمع مختلف تماماً عن ذلك الذى كان يحكمه النبى محمد ﷺ ، فإن التطبيق المثالى لمبادئ محمد ﷺ يمثل نموذج « السُّنَّة النبوية » التى لكى تكون خميرة فى مجتمع مختلف ، فإن ذلك

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٢١ .

يتطلب ليس تقليداً أعمى جاهلاً بالظروف الجديدة لتطبيق المبدأ الخالد، ولكن استدلالاً بالقياس لتطبيق ذلك المبدأ على حالات جديدة .

ولا يمكن لأحد أن يعفينا من مسئولية الاجتهاد لنتوصل إلى حل ما يستجد فى عصرنا من مشكلات لم تكن موجودة بحيث يكون حلاً متمشياً مع القانون القرآنى .

والقرآن نفسه يعطينا المثال على التاريخية : فقد يحدث أن ينسخ الله آية ويحل محلها آية أخرى للرد على ما يستجد من مواقف : ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىءٍ قدير** ﴾ [1] .

وحتى على مستوى الصلاة يمكن أن يحدث مثل هذا التغيير ، وأكبر مثل على ذلك هو : تحويل القِبْلة وهى وجهة المصلى فى صلاته، ففى أول مسجد بناه النبى محمد ﷺ فى المدينة فى عام (٦٢٢) كانت القِبْلة إلى بيت المقدس ، ثم أمرهم القرآن بالتوجه إلى الكعبة كما بينت الآيات من (١٤٢ - ١٥٠ سورة البقرة) .

وهكذا ، بعيداً عن التعديل التاريخى الذى أدى إلى إفساد العلاقة مع أمة اليهود ، فإن الهدف والمعنى يبقى كما هو : والتوجه فى الصلاة يعنى فى نفس الوقت وحدة الإيمان والعقيدة الإبراهيمية ووحدة الأمة الإسلامية ، ففى الحالتين يتوجه كل المسلمين إلى نفس المكان ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٠٦ .

وفى الحالتين لا بد من وجود مكان مقدس من مآثر إبراهيم : بيت المقدس أو مكة بقبلتها (١) .

والقرآن نفسه يوضح نسبية الحدث بالمقارنة بالمعنى : ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ (٢) ، وقال أيضاً : ﴿ **فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً** ﴾ (٣) .

وضد هذا التزمت والشكلية يقول الله تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب** ﴾ (٤) ، فالقرآن يدعو ليس فقط إلى باطن الإيمان ومناهضة الشعائرية ، ولكن إلى الإيمان الذى يتضح فى سلوكنا نحو الآخرين: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾(٥) .

وهذه « التاريخية » للقرآن تبدو أكثر وضوحاً فيما يتعلق بالنساء ، والقرآن يتحدث إلى الناس بلغتهم وبمستوى فهمهم حتى تكون الرسالة مسموعة ، إنه يتحدث إلى عرب القرن السابع ، أى إلى أمة تتبع التقاليد « الأبوية » للشرق الأوسط ، أى الخط اليهودى العبرى

---

(١) إن كان « جارودى » يقصد بالديانة أو العقيدة الإبراهيمية الإسلام ، حيث إن إبراهيم أبو المسلمين ، وإن موسى وعيسى كلاهما دعا إلى الإسلام ، فصحيح ، أما إن كان يقصد تذويب الخصوصيات بين الديانات الثلاث فهو أمر خطير على الإسلام حتى وإن قبله المسلمون جدلاً ، فلن يقبله اليهود أو النصارى . (المترجم) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١١٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية : ٩٢ .

فيما يخص وضاعة المرأة ، وخط المسيحية فيما يخص تعاليم القديس « بولس » الذى كان عدواً لدوداً للمرأة ، وخط شبه الجزيرة العربية بتقاليده القبلية من تغليب دور الرجل .

وحتى تصل الرسالة بلغة هؤلاء الناس وبهذه التقاليد الأبوية التى استمرت أربعة آلاف عام ، فكان من الضرورى أن يوافق على تلك المسلَمة العتيقة ، فقال : ﴿ **وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم**﴾[1] ، وقال أيضاً دون تبرير لتلك المسلمة : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**﴾[2] ولذلك يمكن أن تضرب المرأة لمجرد الشك فى عدم وفائها : ﴿**واللاتى تخافون نشوزن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن** ﴾[3] .

وعند التحدث بلغة هؤلاء القوم فى تلك الفترة وحسب تقاليده ومستوى فهمه الممكن ، فمن المسموح مثلاً شهادة امرأتين مكان رجل: ﴿ **فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان** ﴾[4] ، أو أن يأخذ المنتصر فى الحرب نساءً أسيرات (سورة النساء ، الآية : ٢٤) ، أو أن يتصرف الرجل فى امرأته كما يتصرف فى حقل[5] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٨ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٣٤ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ٣٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .

(٥) لعل « جارودى » بذلك يقصد الآية: ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾، ولكن الآية=

وانطلاقاً من هذه اللغة (وهذه العادات الخاصة) لقوم فى فترة تاريخية معينة وفى مجتمع معين ، فإن القرآن يحدد أولاً أضرار تلك التقاليد ، فهو يحرم قتل الأولاد (١) ، أو اتباع التقاليد العربية لما قبل الإسلام من قتل البنات ونحوه (سورة النحل ، الآية : ٥٩ ، سورة التكوير ، الآيتان : ٨ ، ٩) .

وتعدد الزوجات مسموح به ، ولكنه ينظم بشكل يجعله أقل ممارسة ، وللغرب حول هذه النقطة أسباب زائفة تثير السخط : فمثلاً ما هى النسبة المئوية للرجال الذين لا يعرفون إلا امرأة واحدة فى الغرب ؟ أليس الأكثر من ذلك نفاقاً ولا أخلاقياً أيضاً أن يسمح للرجل أن يكون له طفل من عشيقته ، ثم يتركها دون أن يعاقب بدلاً من أن يطلب منه أن يتزوج زواجاً يقتضى بالنسبة للرجل واجبات لا مناص منها (لا سيما تأمين حاجات زوجته) ؟ .

وحتى نضع أيضاً هذا التقييد القرآنى لتعدد الزوجات فى سياقه

= معناها يتضح حسب السياق : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم ﴾ ، فالآية تتكلم عن محظورات الجماع ، حيث إن الآية السابقة تمنع الجماع حال الحيض ، وهذه الآية معناها كما قال المفسرون : إن الفائدة المرجوة من المرأة أن تكون أرضاً خصبة لإنجاب الأولاد ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان الجماع فى الفرج لا فى غيره من الأمام جاء أم من الخلف بشرط أن يكون فى الفرج مع التقديم بالتقبيل والمغازلة ونحوه . (المترجم) .

(١) أحد الأمثلة على تلك البربرية مذكور فى سفر الخروج (إصحاح ٩ ، آية ٥):
« كل مولود سيموت فى بلاد مصر ، من مولود لفرعون وحتى ابن الخادمة ، فيما عدا أبناء إسرائيل » .

التاريخى والحديث الصحيح ، فمن المفيد أن نذكر أن تعدد الزوجات وبدون قيود كان جائزاً فى العهد القديم ، ومما يذكر فى هذا الصدد حريم داود ، والـ (٧٠٠) زوجة لسليمان بخلاف السرارى الـ (٣٠٠) (١ . سفر الملوك ١١ ، ١ - ٣) ، وفى زمن شارلمان (أى بعد قرنين من نزول الوحى القرآنى) كان القساوسة متعددى زوجات ولم تفرض الرهبة على الإكليروس إلا فى عهد جريجوار السابع (١٠٢٠ - ١٠٨٥) .

كذلك يجب أن نذكر أن حق الطلاق كان مكفولاً للمرأة منذ زمن النبى ﷺ : فحينما طلبت زوجة محمد بن أميمة (ابنة الجون) الطلاق منحه لها النبى ﷺ ، وحتى أنه أعطاها هدية [١] (البخارى ٦٨ ، ٣) ، بينما لم يكن حق الطلاق مكفولاً للمرأة فى الغرب إلا فى القرن العشرين ، وكذلك حقها فى التملك .

ويجب أن نضع فى الاعتبار أنه فى المجتمع العربى تعتبر كل واجبات المعيشة للأسرة والوالدين ، وكل ما نسميه اليوم بالضمان الاجتماعى يقع على عاتق الزوج ، ومن هنا كان نصيب الولد فى الميراث : ﴿ **للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ [١] .

وكل ذلك مرتبط بظروف تاريخية معينة ، وبالنسبة لها : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ [٢] ، وهذا القانون يظهر تقدماً واضحاً بالنظر إلى المجتمع الجاهلى واليهودى والمسيحى واليونانى والرومانى .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١١ .

(٢) ربما يقصد « جارودى » الخلع ، وهو حق للمرأة بموجبه تبرئ الرجل من مستحقاتها ويطلقها . (المترجم) .

وليس فى الإسلام ما يمكن أن يبرر التفرقة ، فالتميز العنصرى الملموس بالنسبة للمرأة والذى يسود اليوم فى كثير من البلاد الإسلامية : هذا التميز ينبع من بعض التقاليد الشرق أوسطية وليس من الإسلام فى شىء ، ففى الإسلام فى زمن النبى ﷺ وخلفائه الراشدين كان تقسيم العمل والواجبات معروفاً وملحوظاً، فلم تحرم النساء من أى نشاط اجتماعى؛ حتى فى الحرب لم تكن النساء مجرد ممرضات (البخارى ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٨) ، وإنما كن جنوداً أيضاً (البخارى ١١ ، ٤٠) .

وقد عين الخليفة عمر بن الخطاب امرأة مراقبة لسوق المدينة ، وكانت عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ وأم المؤمنين تعلم الناس أمور الدين ، ولم يستأ الخليفة عمر بن الخطاب حينما قاطعته امرأة أثناء الخطبة بل إنه شكرها لرجاحة رأيها .

وكل أنواع التمييز تنتمى إلى تاريخ بلد أو فترة قاطعها القرآن حين ذكر ثمانية مرات فى (سورة آل عمران ، الآية : ٩٥ ، وسورة النساء ، الآية : ١٢٤ ، وسورة الرعد ، الآية : ٢٣ ، وسورة الإسراء ، الآية : ٤٠ ، وسورة غافر ، الآية : ٤٠ ، وسورة الزخرف ، الآية : ١٧ ، وسورة الفتح ، الآية : ٦ ، وسورة الحديد، الآية : ١٨) إن الله لا يفرق بين الرجال أو النساء إلا على أساس عمل الخير أو الشر .

وبصورة أعلى من التقلبات التاريخية قد أكد المبدأ الخالد نسخ كل طبقية بين الرجل والمرأة مؤكداً ليس فقط مساواتهما ، ولكن أيضاً تكاملهما ، بل وحدتهما الخلقية : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى**

خلقكم من نفس واحدة ﴾ [1] ، فأصل الخلقة كائن واحد ، انقسم إلى نصفين متساويين فى الكرامة ، متنوعين فقط فى المهام .

إن السعى الجاد لتلك الروح يعتمد على عكس ما انبثق عن طريق كبار الفقهاء المسلمين عندما أصبح الإسلام إمبراطورية ، فحاولوا أن يجتهدوا لتفسير الكلام الإلهى ليتمكنوا من مواجهة المواقف التى تستجد ، إن الأمر يتطلب كما كررنا دائماً أن نستخرج مما حققوه تاريخياً المبادئ الخالدة التى تسمح بإيجاد حلول لمشاكل اليوم .

إن القرآن يكشف لنا عن قيم خالدة ، وهو يكشفها لنا بالإجابة النوعية التى ساقها لمشاكل تاريخية محددة .

وهذه الخاصية التاريخية للوحى الإلهى ، أى الإجابة النوعية التى يسوقها لمشاكل مجتمع معين فى لحظة معينة من تاريخه تتضح فى القرآن (سورة الرعد ، الآية : ٣٨) .

وعندما يقول لنا القرآن فى (سورة النحل ، الآية : ٨٠) :
﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ .

من الواضح أنه يدعو فى لحظة معينة من التاريخ أمة من البدو ليقولوا حقيقة خالدة وهى : الاهتمام بوجود الله ، على عكس ادعاء البروميثيين أو الفراعنة الذى قالوا : يمكن أن يكتفى الإنسان بنفسه دون

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٠

إله ، وهذا تذكير بالسمو فى مقابل كل كفاية بالنفس البشرية تلك الكفاية التى وجدت طريقها مع البنائين أدعياء التقدم : بناة الأهرام ، أو صناع الرؤوس النووية .

وحينما يوصينا القرآن بتطهير أنفسنا قبل الصلاة ، فإنه يقول : ﴿فلم تجدوا ماءاً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾[1]، ومن الواضح أنه لم يتوجه بالخطاب إلى سكان الإسكيمو، ولكن إلى سكان الصحراء .

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾[2] .

ومن خلال تجربته المحلية ، فإنه يحمل رسالة خالدة ، وهى : رسالة الوضوء الرمزية التى توضح ضرورة شعيرة التطهير حتى تتضح الصلاة فى حياتنا اليومية لنركز حول حياتنا ونحن نخلصها من كل تعلق بهموم مباشرة حتى تعطى من جديد كل سلوك معناه ونعيد إدراجه فى المصدر الخالص لكل الخلق وهو : سمو الله تعالى .

ألم يتخلص القرآن من النظرة التاريخية المقيدة بشكل يسترعى الانتباه فى سورة المسد ، حينما ذكر أعداء محمد ﷺ بأسمائهم ، وقال الله : إنهم فى نار جهنم، مثل عمه أبو لهب وزوجته، ألا يجب أن نستخرج من هذه القصة الموجودة فى تاريخ القبيلة أن معناها: إن جمع المال بلا غاية إنسانية والازدياد الأعمى الذى أصبح عالمياً ومنتشراً

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٤٨ .

بين الأمم هو المقصود ؟ [(١)] ، ويمكننا أن نعرض الكثير من الأمثلة على تاريخية القرآن ، فعندما يرفض القرآن مثلاً فكرة أن مريم هى الشخص الثالث فى الثالوث عند المسيحيين ، فإن إدانة عبادة الأم هذه كانت تاريخية جداً، فلقد هوجمت هذه الهرطقة من جانب «أورچين» عند السكولردين (ضد الهرطقات: ٩ ، ١٣) ، وعند الحناشين الذين يخلطون بين مريم والروح القدس فى (تعليقات يواقيم : ٢ ، ٦) .

إذا فالمجادلة تخص لحظة معينة من التاريخ وليس لها اليوم من سبب لوجودها، فهى تتعلق بمعرفة ماذا يمكن أن يرد المسلمون فى زمن محمد ﷺ على المسيحيين ، وقد جاءت الرسالة بلغتهم [(٢)] .

(ب) وتنبع تاريخية القرآن أيضاً من أن وحى الرسالة الخالدة موجه إلى شعب معين فى لحظة معينة من تاريخه وبلغته التى تسمح له بفهمه : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ [(٣)] ، ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ [(٤)] .

---

(١) ذلك يؤخذ من منظور : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وأن مصير من يحذو حذو أبى لهب هو مصير أبى لهب ، ولم يكن حذو أبى لهب الذى ذمه القرآن جمع المال فقط ، ولكن إيذاء النبى ﷺ وتكذيبه ، وإيذاء زوجته للنبى ﷺ ، كذلك فمن أذى النبى ﷺ الآن بالسب أو بغيره فله نفس مصير أبى لهب . والله أعلم . (المترجم) .

(٢) وهل هناك مانع من أن يثير بعض غلاة المسيحية نفس المزاعم ، فنحتاج نفس الرد أو نقيس عليه فيما يستجد من معارضات عملاً بمبدأ « جارودى » فى القياس ؟ . (المترجم) .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية : ٤ .

(٤) سورة الرعد ، الآية : ٣٨ .

ونفس الحال بالنسبة لنبى الإسلام محمد ﷺ ، فقد بلغ رسالة الله بالعربية : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً** ﴾ [(١)] ، ولكن هذه رسالة إلى كل البشر وكل العصور ، وكل سورة وكل آية فى مكة أو المدينة هى إجابة إلهية عن مشكلة حقيقية ، ولا تضع فى الاعتبار مناقشة الأسلوب الإلهى فى هذا الوحى إلا فى إطار اللحظة التاريخية وثقافة ، وحياة شعب ما : ﴿ **ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ [(٢)] ، ﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون** ﴾ [(٣)] ، وكذلك : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾ [(٤)] ، إذاً فلغة الوحى القرآنى ليست فقط رمزية بل تاريخية .

والقانون الإسلامى « الشريعة » على عكس القانون الرومانى تماماً: فالقانون الرومانى (الذى يستمد مصادره من علاقات القوة والفعل فى المجتمع الرومانى) يريد أن يعطى انطباعاً أنه يشرع تشريعات مجردة متوقعاً أطراً خالدة لما يستجد من سلوك .

أما النصوص القرآنية والتى استخرجت منها مبادئ الشريعة الإسلامية ، فإنها تعالج على العكس من ذلك أحداثاً تاريخية حقيقية، وتكون الإجابة عن موقف تاريخى استلهاماً إلهياً ، ولكن

---

(١) سورة طه ، الآية : ١١٣ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٩ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٢٧ .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ١٠٥ .

من الضرورى أن نستخرج منها فى كل لحظة الهدف وسبب الوجود لنطبقها على حالة جديدة ما .

ونفس الشىء فيما يتعلق بقضايا خلق العالم ، فالقرآن يكشف لنا الحقيقة الخالدة فى هذا الأمر ، بلغة القوم الموجهة إليهم الرسالة ، وعندما نقرأ أن الله عز وجل خلق العالم فى ستة أيام : ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام** ﴾ [1] ، أو فى يومين: ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربُ العالمين** ﴾ [2] ، فهل نقرأ القرآن ونحن نحتاج إلى كتاب فى الچيولوچيا على طريقة قراءة التوراة التى قرأتها أحكام جاليليو أو نستخرج من هذه الصورة الرائعة أن الله وحده هو الخالق المطلق والذى يعتبر الخلق بالنسبة له تلخيصاً فى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [3] ، وانظر : (سورة البقرة ، الآية : ١١٧ ، وسورة آل عمران ، الآية : ٤٧ ، وسورة الأنعام ، الآية : ٧٣ ، وسورة النحل ، الآية : ٤٠ ، وسورة مريم ، الآية : ٣٥ ، وسورة غافر ، الآية : ٦٨) .

فالوجود ليس إلا الخروج إلى حيز المرئى ، وفى كل تصرفاتنا نتعلم التوافق مع مصدر الخلق ، وهذا الخلق مستمر مثل تدفق مصدر الماء الحى : ﴿ **أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن**

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٥٤ .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٩ .

(٣) سورة يس ، الآية : ٨٢ .

يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ [1] ، وسنحاول أن نخادع كما كان علماء اللاهوت المسلمون التافهون فى القرن الماضى حين نقول : يطول مدى الأيام ونحن نذكر تلك الآية من القرآن التى تقول : إن يوماً عند الله مقداره خمسين ألف سنة من سنين البشر : **﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾** [2] ، وهذا لن يجعلنا نتصالح مع علم الچيولوچيا ، ولكنه فقط سيحبسنا فى حرفية تجعلنا نفقد التفكير فى الأساسيات وهى ما وراء حساب الأيام والسنين والساعات والفلك والچيولوچيا ، وهى اللانهائية الحقيقية ليوم الخلود : **﴿ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾** [3] ، وذلك أبعد من أوقاتنا البشرية والتى نقيسها بحساب مسافتها المعروفة ونحكم عليها بذلك .

والرسالة الوحيدة والرسالة الخالدة نقلت إلى كل شعب بواسطة أنبياء يتكلمون لغة هذا الشعب ، أى بمستوى فهم هذا الشعب ، أى أن هذه « التاريخية » فى شكل الرسالة لا تتعارض أبداً مع القيمة المطلقة للرسالة .

والقول بأن العالم خلق فى ستة أيام لا يتعارض أبداً مع الخلق الآنى والمستمر من قبل الله خارج حدود الزمن ، فهذه الصورة أتت بلغة الإنسان الذى يعيش فى الزمن ، حيث العمل لا بد أن يسبق

---

(١) سورة يس ، الآية : ٨١ .

(٢) سورة المعارج ، الآية : ٤ .

(٣) سورة سورة ق ، الآية ٣٣ .

بمشروع ويتتابع من خلال مراحل زمنية ، وهو إنسان بالنسبة له يتطلب بناء منزل من الطوب عدة مشهور ، فالقول بأن الأرض وجبالها والبحر وعواصفه والسماء ونجومها ، كل ذلك خلق فى ستة أيام، فتلك استعارة مدهشة تعنى للإنسان وجود خالق ليست هناك نسبة بين عمله والعمل البشرى ، فهذه الصورة البسيطة والتاريخية تحمل حقيقة تسمو فوق كل الصور .

ورفض التأويل أى الترديد الحرفى يجعل الرسالة مبهمة ويشل التصرف ، فسوف تكون الرسالة غامضة إذا أعطينا انطباعاً أنه يوجد تناقض فى النص نفسه ، أى : الخلق فى ستة أيام ، و﴿ **كن فيكون**﴾، والتناقض مع العلم أيضاً ، بينما ليس ثمة أى تناقض بين التعبيرات المختلفة الخاصة بالناس أو الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) لنفس الحقيقة القرآنية .

والتناقض لا يوجد إلا لو أراد المرء أن يتعلق فقط بالحرفية ، وساعتها سيكون مجبراً على القيام بأسوأ بهلوانيات عقلية ليحاول أن يفهمنا أن كل اكتشافات العلم والتقنية كانت موجودة فى الكتاب المنزل (القرآن) ، كما لو كانت فكرة التنبؤ لها معنى منذ كان الله خارج حدود الزمن ! .

وتحدد الآيتان (٢٨ ، ٢٩) من سورة الحجر مكان الإنسان فى الكون : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين**﴾ .

وهذا التكوين الشفاف يعلمنا بلغة شاعرية المعنى الشامل لحياتنا ،

فنحن : **أولاً** : خلقنا ، أى : إننا لا يمكن أن نستغنى بأنفسنا ، بل يجب أن نكون داخل تكاملية ووحدة الوجود .

ثانياً : أننا خلقنا من الأرض ولم نخلق عبثاً أو مصادفة أو ضرورة، وقد أخذنا من هذا الصلصال ومنحنا الله منحة الجمال وتلك منحة تقينا من التشويه ، وقد دعانا الله إلى أن نحيا حياة إنسانية وجميلة وذات معنى ، وقد أعطى الله كل ذلك لبقية الكائنات الأخرى فى الطبيعة ، ولكننا تلقينا عن الله أمانة أكثر تقديساً ، فالخالق جل وعلا نفخ فينا من روحه ، ولذلك كان للإنسان وحده هذا البعد السموى ، وهذا التميز الخطير بحق الحرية .

فهل بعد أن حدد لنا مصيرنا والمسئوليات الناتجة عنه ، هل من الضرورى أن نبحث فى القرآن عن مبحث فى علم الإحاثة [١] حول وجود الإنسان أو فى علم الأجنة حول مولده ؟

وحينما نفكر (أو بالأصح لا نفكر) بهذه الطريقة ، يمكننا أن نجد فى التراتيل والتسابيح الفيدية [٢] إعلاناً للطبيعة الكمية ، وتقول تلك العقيدة الرائعة :

« وتصعد وتنمو شجرة الحياة من المحيط .

من ذلك الماء المخصب حيث ولد الجنين الذهبى .

---

(١) علم الإحاثة هو : علم يبحث فى أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات أو المستحثات الحيوانية والنباتية . (المترجم) .

(٢) الفيدية : المأخوذة من كتاب الفيدا ، وهو أحد كتب الهندوس الدينية الأربعة . (المترجم) .

مثل كبة الزبد فى اللبن » .

وقد قال أحد المفسرين عما تقدم : إن هذا إعلان للطبيعة الحديثة والتى بالنسبة لها لا تعد الذرة جزءاً منفصلاً عن كل الأجزاء الأخرى بفراع ، ولكنها تركيز الميدان» فى نقطة خاصة ، « مثل كبة السمن فى اللبن » ! .

فهل من الضرورى أن نبحث فى القرآن عن إعلان الاكتشافات الفضائية ما دام القرآن يقول لنا : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ [١] .

يجب أن نضع الإنسان فى مكانه الصحيح ، وأن نحارب «استغنائه» ، ولو اتبع الإنسان تلك القراءة الحرفية فسيكون من السهل أن نجعل من محمد ﷺ أول رائد فضاء « إذا فسرنا حرفياً » قصة «الإسراء والمعراج » [٢] .

إن رفض تأويل الرسالة يشل سلوكنا أيضاً حين يجمد العلاقات البشرية عند لحظة عابرة من التاريخ .

وبعيداً عن القضايا العلمية التى مرت وحكى عنها القرآن ، والتى لم تحدث ، فإن هذه نظرة العالم حيث كل قضية علمية فيه ، وكل

---

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٣٣ .

(٢) لم يكن النبى ﷺ أول رائد فضاء بالمعنى المعاصر ، بل اخترق حجب السماء حتى وصل إلى سدرة المنتهى ، وهو لم ولن يتأتى لمثله ، ولم يصعد النبى ﷺ بوسيلة مادية من وضع الإنسان ، بل بقدرة الله حيث أسرى به . (المترجم) .

اكتشاف لحقيقة جديدة إنما هو مجهود خلاق لإثبات وحدة العالم التى تنبع من وحدانية الخالق ، والذى هو السبب الأول والغاية الأخيرة ؛ والترابط بين كل ظواهر الطبيعة ومقادير كل البشر فى هذا العالم الواحد : ونظام الطبيعة ، ومعنى حياتنا الباطنة فى هذه الوحدة وهذا الترابط ، حيث لا شىء يأتى بالمصادفة ، ولكن كل شىء له معنى ، والتدفق اللامتناهى من جديد ، والخلق المستمر لعالم بعيد عن التنافر يعلم التناسق ويذكرنا بأن نشارك فى انتصار هذا التناسق والذى هو فى ذاته جمال ، وهذا الترابط الذى يعنى المصائر العالمية المشتركة ، وهذه الوحدة وهذا المعنى الذى نؤكده ونمنحه لحياتنا حين نقول : «الله » .

هذه النظرة هى الباعث الأكبر على البحث العلمى وعلى التحليل الجسور دائماً للأحداث ، و« آيات الله » ، وعلى تكوين أمين لقضايا شاملة مثل قضية «أينشتين»، وكل تلك القضايا « آيات » تشهد بوحدانية الله ووحدة العالم الذى خلقه .

وهذه القراءة تحاول أن تتخلص من « الاكتفاء به » ، ومن الخمول العقلى ، ومن العقائدية والتحريف الناتج عنها ؛ لأنه عندما أعتقد أننى أملك الحقيقة التامة والوحيدة والقاطعة ، فإن أحداً يرفض تلك الحقيقة يكون من وجهة نظرى صاحب نية سيئة أو مريضاً لأنه يقاوم قناعتى ، ولا يكون مصيره إلا دخول مستشفى الأمراض العقلية أو السجن أو الموت ، وهذا منطق العقائدية القاسى والقاتل .



لا يتوقف القرآن عن تذكيرنا بوحدة العقيدة الإبراهيمية ، والإخلاص فى الإيمان المثالى لإبراهيم ، ويوضح القرآن أنه يصدق الكتب السابقة لموسى وعيسى (سورة آل عمران ، الآيتان : ٣ ، ٤ ، وسورة المائدة ، الآية : ٤٨ ، وسورة الأنعام ، الآية : ١٥٤) ، والذين كانوا كما قال الله : أنبياء مسلمين .

وهو ينصح النبى محمداً ﷺ والمسلمين من خلاله أن ينشر الرسالة الخاتمة معتمدين على الذكر السابق عند اليهود والنصارى من توراة وإنجيل حتى نستطيع أن نفهم جيداً الكلام الإلهى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾[١] ، ولا ينبع ذلك من هذه الآية فقط ؛ لأنه إذا كان كل الرسل السابقين رسلاً من الله والنبى محمد ﷺ لم يكتف بتكرير ما قالوا ، بل أضاف أبعاداً جديدة وخاصة فى المجالات السياسية والاجتماعية لرسالته (على خلاف عيسى مثلاً الذى كان يفرق بين ما لله وما لقيصر » ، وهكذا يمكن للرسالة أن تفهم كاملة ، وأن نثرى فهمنا للقرآن بمعرفة عميقة للرسائل السابقة فى حياة وتاريخ البشر .

ومن ناحية أخرى ، فإن علم أصول الدين الإسلامى سيكون أكثر ثراءً إذا أكمل الإسهامات العميقة فى الكون واللاهوت فى الكتب السابقة .

ولكونه مؤمناً بالتعاليم التى كررها القرآن فى مرات عديدة كتب

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٤٣ .

الشيخ «محمد عبده » إلى مفكر إنجليزى يقول : « بالنسبة لى ، فالتوراة والإنجيل والقرآن ثلاثة كتب متكاملة وثلاثة بشارات متحدة فيما بينها : وكل المتدينين يدرسون الكتب الثلاثة ويحترمونها أيضاً : وهكذا تكتمل التعاليم الدينية ويسطع دينها الحقيقى من بين كل الأديان، » ونص القرآن نفسه يثبت عدم صحة الحديث الذى يروى أن النبى ﷺ وبخ أحد أصحابه على قراءة التوراة » (١) .

ويتأتى عدم صحة هذا الحديث من تعارضه التام مع القرآن ، حيث يؤدى إلى إفقار الإسلام وإشعاعه كوحى سام لا ينسخ ، ولكن يؤكد الرسالات السابقة ، ومن المؤكد أن القرآن ﴿ **مصدقاً لما بين يديه**﴾ (٢) ، وكذلك ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾ (٣) ، وكذلك ﴿ **وقفينا على ءاثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وءاتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ (٤) .

---

(١) لعل « جارودى » يقصد ذلك الحديث الذى يقول : إن النبى ﷺ وجد التوراة مع عمر ، فأنبه قائلاً : « أكتاب مع كتاب الله » يقصد القرآن ، وهذا الحديث المراد منه أن النبى ﷺ كان يحافظ على عقيدة المسلمين ، وهى فى أولها ، ويخاف أن تختلط بخرافات اليهود وتحريفاتهم فى التوراة عن الله من وصفه بالصفات البشرية ، والكلام غير اللائق عن الأنبياء ، أما بعد ثبات العقيدة وتأصيلها فلا مانع أن نقرأ هذه الكتب قراءة نقدية . (المترجم) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٩٧ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٤٤ .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٤٦ .

كيف يمكن لمسلم أن يحرم نفسه من هذا النور، ومن نور أنبياء كل الأمم ؟ [1] .

كيف يمكن لمسلم أن يحرم نفسه من التجربة الروحية للهند أو الصين ويتجاهل تعاليم الأنبياء فى كل العصور ، بينما يأمره القرآن أن يؤمن بهم (سورة البقرة ، الآية : ٤) ، ولقد أصلح القرآن الرسالة الإلهية التى تكررت مرات عديدة وفقدت لمرات عديدة ليس فقط «لأهل الكتاب» ، ولكن لعقيدة كل البشر : ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**﴾ [2] ، ﴿ **ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك**﴾[3] ، والقاسم المشترك بين كل هذه الرسالات أن الرسالة الإلهية التى زيفت فى أحيان كثيرة ، ولكنها ترجع إلى مبدأ بسيط هو « توحيد الله » ، وبدونها يصير العالم فوضى ذات وحدة بشرية ، حيث لا يسمو إنسان على الآخرين إلا بتقواه : ووحدة الحياة التى يعلمها لنا الله بآياته من ظواهر الطبيعة وأحداث التاريخ حتى كلام الرسل ، وكذلك مسئولية الإنسان وواجبه فى تغير العالم والمجتمعات الإنسانية التى لا تأطر نفسها على منهج الله ، وعندما أرسل الله أنبياءه إلى كل الأقوام كما قال القرآن ليحملوا نفس الرسالة بلغة ومستوى

---

(١) كانت التوراة والإنجيل نوراً قبل أن يحرفا ، ولكن بعد تحريفهما وبعد نزول القرآن بخلاصة الخير والحق والجمال والأخلاق لم نعد بحاجة إلى استجلاء الهداية من تلك الكتب المحرفة . (المترجم) .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٧٨ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٦٤ .

فهم كل شعب ، فإنه يوجد بالتأكيد بعض لمحات هذه الرسالة مثلاً فى النصوص الدينية المقدسة فى الهند فى « الفيدا ، والإينشادا والبهاجافا والچتيا » .

وحتى وهى مختلطة بالتعبيرات الشركية الحقيقية لكل الناس فى الأزمان الغابرة وفى الشعر العظيم « لتراتيل الفيدا » ، فإن معنى وحدة الحياة العميقة تبدو واضحة ، وكذلك وحدة الإنسان والطبيعة والإله .

ومن خلال تعدد أسماء الله ، حيث يوضح كل اسم أحد ألوان مشاركة الإنسان بالتضحية والسلوك والمعرفة أو الحب فى الوحدة السامية للحياة الإلهية ، «العقلاء يطلقون على الكائن الأوحد أكثر من اسم » [(١)] ، وهم يعترفون بآياته فى كل شىء ، « كل الأشياء تتحدث عنه » .

وتكشف « الإينشادا » للإنسان أنه من الوهم أن يستغنى بنفسه أو يعتقد أنه هو الحقيقة العليا فليس لحياته معنى ولا حقيقة إلا فى ظل علاقته بالواحد الأحد ، وتعلمه « الفتسفادارا فى الإينشادا » أن « الله الواحد الأحد ، موجود فى كل شىء ، هو الشاهد والدائم والمطلق دون هيئة وليس له ثان » (٦ - ٥) .

كما قال القرآن بصورة تامة عن الله : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر**

---

(١) رج فيدا ، القسم الثانى ، قراءة ٣٥ ، تسبيح ، ترجمة لانجلو ص ١٥٠ ، ط. فيرون نو .

والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾ [1] ، ﴿ قل كل من عند الله ﴾ [1] ، وكذلك ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ [3] . . . إلخ .

وحسب « الإينشادا : « الله ليس فقط داخل كل شىء ، بل هو أيضاً خارج كل شىء أوسع من الكون » [4] .

وهكذا ولد اليقين بسمو الله « فاليهاجها فادچيبا » ، وهى تلخص فى النهاية الحكمة الفيدية تطرح المشكلة الأساسية للإنسان ، وهى : ما هى الإرادة الإلهية ؟ ما هو واجب الإنسان الذى يخضع لتلك الإرادة ؟ هنا تأتى الإجابة العظيمة النبوية على أسئلة « أجونا » : «إن لك مهمة تقوم بها . . . فالإنسان الذى يقهر كل الغرائز سوف يذهب حراً فى تعلقه بغيره ، ولن يقول : « هأنذا » ولا « أنا » ، بل إنه سينشد السلام ، قم بمهمتك من هذا اليوم ؛ لأن النشاط أسمى من الكسل » ، هذه التعاليم ألا تتصل بتعاليم القرآن فيما يخص مسئوليات الإنسان باعتباره « خليفة الله » ؟

إننى لا أذكر ذلك لأوهم الناس بأنه لا فرق بين الإسلام والهندوكية، ولكنى فقط أذكر أن كل الرسائل المقدسة جاءت من عند نفس الإله وحملت نفس التعاليم كما كتب عالم فرنسى يسوعى هو الأب « تياردو شاردان » : « كل ما يصعد يتلاقى » .

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٣ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٧٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢١٠ .

(٤) إنشايو بنشاد : ١/ ٥ .

فسيكون هناك حوار حقيقى عندما يقتنع كل متحدث منذ البداية أن هناك شيئاً ما يمكن أن يتعلمه من غيره .

أظن مثلاً أن التأمل العميق والمتعقل فى « الأدفيتا » الفيدية دون تبسيط أو بخس لقيمة التوحيد عند المسلمين ، (وقد لاحظ الأب مونشانان بشكل يسترعى الانتباه العلاقة بين الأدفيتا الفيدية والمفهوم المسيحى عن الله » .

هذه الأدفيتا يمكن أن تثرى مفاهيمنا المتبادلة عن الوحدانية وتكشف عن أوجه شبه حقيقية، وكذلك عن اختلافات فى سلوك الهندى الحقيقى والمسلم الحقيقى تنشأ عن مفاهيمهما لـ « أدفينا » و« التوحيد » [1] .

وهذا الحوار يمكن أن يكون فاتحة بحث مشترك عن الوسائل التى تحررنا من أنماط الحياة والتفكير الوضعية والفردية فى الغرب ونتائجها الانتحارية ، وفى ذلك أيضاً ما فيه من الروحانيات العظيمة ، فليس المطلوب انتقائية ، بل على العكس فإننا حين نعرف عقيدة الآخرين بعمق فإننا يمكن أن نثق بصورة أعمق فى نوعية وخصوبة عقيدة هذا الآخر ، إن المسلم الذى يعرف النصوص المقدسة عند الهند والصين والزرادشتية والتوراة والتقاليد الروحية فى أفريقيا وأمريكا الهندية يمكنه ليس فقط أن يفهم جيداً تمامية الوحى الإلهى القرآنى والذى هو وحى

---

(١) لا فائدة من محاولة التقريب بين أديان الشرق المختلفة لأن فى الإسلام كل ما ينقع الغلة ويشفى الصدر ، وهو بحالته كما هو ، فقد قال الله تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ . (المترجم) .

أوحد فى ذاته (بدلاً من أن يعتقده أوحد ببساطة بفضل « الاكتفاء » والانتصارية الساذجة لأننا نجهل أو نحتقر عقيدة الآخرين) ، ولكنه يمكنه أيضاً أن يلتزم مع الآخرين أصحاب العقائد المختلفة بحوار نزيه وشامل وبناء .

ولأن هذا الحوار لا يمكن أن ينجح إلا إذا عرف المرء « الآخر » متعرفاً بداية على ما يحمله فى داخله من حقيقة ، فإننا لو أردنا بعد ذلك أن نرتفع به نحو إيمان سامٍ ، فسنكمل ما عنده وكأن هذا الإيمان لحظة من لحظات إيمانه ، وهذا التقهقر السريع والانغلاق على النفس يعد نقطة ضعف ، فالإسلام المبكر المنتصر لم يكن عنده خوف : فقد كان منفتحاً دون أن يفقد شخصيته على كل الثقافات العظيمة فى بيزنطية وروما واليونان وفارس والهند ، وقد جمع تحت إشعاعه آلاف النصارى واليهود والزرادشتيين .



إن مبدأ التواصل هذا لا يمكن أن ينفصل عن مبدأ التكامل والشمولية ، والقرآن يسوق تعاليمه كمبادئ للسلوك أكثر منها أوامر ، فبدلاً من معارضة أية فى حرفيتها كما فعله الذين كانوا يلومون على النبى ﷺ لنسخ الآيات وتبديلها ويدينونه : ﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ [1] ، فإن المطلوب هو إعادة الفهم عن طريق الأمثال والأحداث المذكورة

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٠١ .

تاريخياً ، والقصد من وراءها ذلك الذى يعطيها معناها ، وإرادة الله العالية التى ذكرها النبى ﷺ كهدف .

إن قانون الترابط المنطقى هذا يسمح لنا بالتخلص من الحرفية ، وأن نحيا الكلام الإلهى فى وحدته الخصبة ، ويوصينا الشيخ محمد عبده فى « رسالة التوحيد ص ٨٩ » : أن « نبحث عن المعنى الحقيقى مستهدين ببقية ما قاله النبى ﷺ » ، وكذلك فعل الشيخ ابن باديس حين كتب يصيغ مبدأ تكاملية قراءة القرآن فقال : « هناك كثير من المواضع فى القرآن لا تفسر إلا بمواضع أخرى » (ش . ب ، يونيه سنة ١٩٣٣م) ، وذلك حتى نتحاشى السير الحرفى حين نفصل آية من القرآن لنعطيها معنى مطلقاً بدلاً من أن نبحث عن معناها العميق وقيمتها الخالدة حين نضعها فى سياق مجموع الوحى القرآنى .

ومن الجدير بالذكر مثلاً أن المحرمات فى مجال الطعام ليست مطلقة ، فالقرآن يستأنف الحديث عن الدواب غير المذبوحة ، ومحرمات العهد القديم والتى نسخها عيسى ، ولكنه يكملها مضيفاً الآيات (سورة البقرة ، الآية : ١٧٣ وسورة الأنعام ، الآية : ١٤٥، وسورة النحل ، الآية : ١١٥) ، ويضيف أنه فى حالة الضرورة يرخص بأكل هذه اللحوم .

والمبدأ واضح : ففى كل حالة يجب أن نتساءل عن هدف الإباحة أو المنع ، وأن نبحث عن وسائل تحقيق هذا الهدف ، وأهم ما فى الأمر أن لا تنتهك مبادئ الوحى ، وهذا يتطلب أن يكون كل مباح وكل محرم ممكناً ، بل لا يجب أن لا يحافظ عليه إذا كانت المحافظة عليه ستفقدنا احترام قيمة عليا من قيم الإسلام .

ولذلك لا يتحتم علينا نحن مسلمى الغرب أن نحكم على النظم السياسية المختلفة فى البلاد الإسلامية ، فهذا شأن خاص لكل شعب ولكل بلد ، ولكن واجبنا الأول هو الدفاع عن رسالة الإسلام فى شموليتها واضعين أنفسنا ليس فقط فى نطاق أمة إسلامية تعلو على الانقسام إلى أمم كان الاستعمار قد أخذ على عاتقه أن يقسمها حتى يستطيع أن يقهرها ، ولكن فى نطاق عالمى موقظين كل العائلة الروحية للخط الإبراهيمى ، وكل حكم العوالم الثلاث بما فيها النزعات الإنسانية المسماة بالإلحادية . ببساطة ، لأنهم ليس عندهم يقين فى أن إيمانهم سيرد إلى الإنسان إيمانه بالله ، بينما هم يحللون هذا الإيمان ؛ لأن المهم كما نكرر ليس إنساناً يتكلم عن إيمانه ، ولكن المهم هو ما يفعله للإسلام ، وضد الاتجاه إلى حرفية عقيمة وتلمودية ، وضد قصر الاجتهاد على أقلية مما أوجد فى الإسلام إكليروسية غربية متعددة مناهضة لروح الإسلام ، فإن مهمتنا أن نتذكر ما هو الإسلام الحقيقى .

وخروجاً من هذا الخمول الطويل من القراءة الحرفية والمبتسرة ، فإنه بعد أن نستعيد القرآن نفسه ، بعد أن نجده فى شموليته وفى روحه واضعين فى الاعتبار أن التاريخية الضرورية لتدخل الله فى حياة مجتمع لا تلغى هذه الخاصية الخالدة والعالمية للرسالة، ولذلك فيجب أن لا نقرأ القرآن أو السُّنَّة بروح « الاستغناء » (١) .

---

(١) واضح أن « جارورردى » لم يتخلص تماماً من الخلفية الثقافية لما قبل إسلامه ، فالإسلام فيه الكفاية كما قلنا مراراً وتكراراً . (المترجم) .

إن القراءة بروح « الاستغناء والاكتفاء » تنطلق من مبدأ يكون القرآن حسبه لم يرسم لنا فقط « الطريق المستقيم » أى الهدف ، وهو: تنفيذ إرادة الله ، ولكنه يكفى لكل شىء ، أى أنه يحتوى مثلاً على كل الحقائق العلمية مثل ما يحتوى على قوانين الحياة الاجتماعية والسياسية ، بينما يأمر الله نبيه فى القرآن : ﴿ **قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ [1] ، وأيضاً : ﴿ **وقل رب زدنى علماً** ﴾ [2] .

ويأمر الرسول ﷺ كذلك كل مؤمن ومؤمنة بطلب العلم حيث يقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وكذلك : «اطلبوا العلم ولو فى الصين » [3] ، وحتى نبتعد عن هذه التعاليم التى تقود إلى الخمول وتصلب الفكر ، وينتشر القرآن فى دور الموسوعة أو القانون ، فإن الأمر يتطلب منا أن ندرس العالم ونثرى أنفسنا بالإخصاب المتبادل للثقافات ، ونثرى عقيدتنا ونجعلها بناءة بفضل معرفة التجربة الروحية للجميع ، وبالحوار الذى يمكن أن يكون خير دعوة إلى الإسلام الذى نعرف أنه خير ما يقربنا إلى الله عز وجل.

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١١٤ .

(٣) كلمة علم المستعملة فى هذا الحديث تتعلق بالعلم بمعناه العام ، (وقد ذكرت بمشتقاتها فى القرآن ٢٤٩ مرة) ، أما العلم الدينى وأصول الدين فتذكر بكلمة أخرى هى « الحكمة » .

ويقول الشيخ محمد عبده صراحة فى « رسالة التوحيد » فى فصل « عن دور الأنبياء » : « إن دور الأنبياء ليس هو دور المدرسين أو معلمى الفنون التطبيقية ، ومن هنا فإنهم لم يأتوا إلينا بتعليم التاريخ أو موضوع العلوم المختلفة فكل هذا يعد جزءاً من وسائل تحقيق الحياة المادية .

إن المرء قد يجد فى كلام الأنبياء بعض الإيضاحات عن حالة الكواكب أو شكل الأرض . . . إلخ ، ولكن كلام الرسل ليس له من هدف سوى أن يلفت أنظارنا إلى مظاهر الحكمة الإلهية ، وأن يقود فكرنا إلى سبر أغوارها والإعجاب بمعجزاتها » .



الفصل السابع

الإسلام هو السبيل إلى الخلاص

الفصل السابع

الإسلام هو السبيل إلى الخلاص

إن الإسلام يملك اليوم إمكانيات واحتمالات انتشاره بأكثر مما كان فى أوج عظمته : فهو يستطيع أمام هذا الإفلاس المستعصى والمزدوج للنموذج الأمريكى والسوفيتى أن يعيد الأمل إلى عالم مهدد فى بقائه بهذا الفشل المزدوج ، إنه يستطيع ذلك إذا تعالى عن الرفض العقيم للاجتهاد، ذلك الرفض الذى أدى به إلى انحطاط يصعب علاجه، إن الإسلام اليوم يعرف كيف يستعيد المبادئ الفعالة التى صنعت عظمته.

وخلافاً للهندوكية والبوذية ، فإن الإسلام لا يعتبر العالم شراً ، وأن السلام للأفراد يكمن فى التخلى عنه .

وخلافاً للمسيحية ، فإنه لا يعارض بين « ما لقيصر وما لله » ، ولا يمتدح حياة الرهبانية ، بل يقول : ﴿ **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ (١) .

إن الإيمان والسلوك شيء واحد : فالإيمان هو الباطن والسلوك هو المظهر الخارجى ، ولا وجود لأحدهما دون الآخر .

ولا يمكن الحط من شأن الباطن ، فالله يقول : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الحديدة ، الآية : ٢٧ . (٢) سورة الرعد ، الآية : ١١ .

إن الأمة الإسلامية هى أمة ذات مبدأ عالمى ، معروف ليس بالجنس أو الأرض أو اللغة أو الثقافة ، ولكن بهدفها الوحيد وهو تحقيق إرادة الله على الأرض ، فهى أمة الإيمان .

والقرآن الذى يقرأ بأعين جديدة يبدو هكذا فى عظمته الحقيقية : باعتباره الوحى الخاتم ، ليس لأن الذى يتلقاه الإنسان بلغتهم يظهرون اللغة الانتصارية « للاكتفاء » أو « العزلة الجميلة » ، ولكن على العكس لأن نحو هذه اللغة تتلاقى حكم الرسالات السابقة .

ففى هذا الوحى تتلخص كل الرسالات معلنة السمو ، سمو الإنسان أمام كل ضرورات الطبيعة ، وسمو الله أمام كل الأفكار ، وكل ألوان الحب ، وكل المشاريع ، وكل سلوكيات البشر .

إننا لا نعتبر أن هذا الدين هو ما هو عليه اليوم ، ولكن من خلال ما يحمله من إنسانية الإنسان ، وكل ما يمكن أن يقدمه أيضاً إذا استعاد ثقته الفعالة فى ديناميكية وحيه الأصلى ، وليس فى الحرفية المميتة التى استمرت خلال العشر قرون الأخيرة من تقاليده ، وذلك إذا لم نكتف بترديد بعض عبارات القرآن التى تنتقى دائماً منذ ألف عام ، ولكن إذا ربطنا الرسالة فى وحدتها العضوية الحية ، وأيضاً إذا لم نخلط بين القرآن وهو الكلام الإلهى للوحى والكلام البشرى للسُّنَّة، وإذا لم ننس أن كل آية منزلة إنما نزلت لترد على مشاكل حقيقية أثيرت عند شعب فى لحظة من تاريخه ، وأن القيمة الخالدة لهذه الآيات ليس من كونها صيغة مجردة ، ولكن من كونها إجابة حية على سؤال حى، وأنها تحتفظ لنا بعد أربعة عشر قرناً بقيمتها الخالدة من حثنا بالدعوة إلى اكتشاف إجابة حية من خلالها على الأسئلة الحية ليومنا، وإذا لم ننس كما يقول لنا القرآن نفسه : إن الله المخالف للحوادث

الفصل السابع

الإسلام هو السبيل إلى الخلاص

إن الإسلام يملك اليوم إمكانيات واحتمالات انتشاره بأكثر مما كان فى أوج عظمته : فهو يستطيع أمام هذا الإفلاس المستعصى والمزدوج للنموذج الأمريكى والسوفيتى أن يعيد الأمل إلى عالم مهدد فى بقائه بهذا الفشل المزدوج ، إنه يستطيع ذلك إذا تعالى عن الرفض العقيم للاجتهاد، ذلك الرفض الذى أدى به إلى انحطاط يصعب علاجه، إن الإسلام اليوم يعرف كيف يستعيد المبادئ الفعالة التى صنعت عظمته.

وخلافاً للهندوكية والبوذية ، فإن الإسلام لا يعتبر العالم شراً ، وأن السلام للأفراد يكمن فى التخلى عنه .

وخلافاً للمسيحية ، فإنه لا يعارض بين « ما لقيصر وما لله » ، ولا يمتدح حياة الرهبانية ، بل يقول : ﴿ **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ [1] .

إن الإيمان والسلوك شيء واحد : فالإيمان هو الباطن والسلوك هو المظهر الخارجى ، ولا وجود لأحدهما دون الآخر .

ولا يمكن الحط من شأن الباطن ، فالله يقول : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [2] .

---

(١) سورة الحديدة ، الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ١١ .

إن الأمة الإسلامية هى أمة ذات مبدأ عالمى ، معروف ليس بالجنس أو الأرض أو اللغة أو الثقافة ، ولكن بهدفها الوحيد وهو تحقيق إرادة الله على الأرض ، فهى أمة الإيمان .

والقرآن الذى يقرأ بأعين جديدة يبدو هكذا فى عظمته الحقيقية : باعتباره الوحى الخاتم ، ليس لأن الذى يتلقاه الإنسان بلغتهم يظهرون اللغة الانتصارية « للاكتفاء » أو « العزلة الجميلة » ، ولكن على العكس لأن نحو هذه اللغة تتلاقى حكم الرسالات السابقة .

ففى هذا الوحى تتلخص كل الرسالات معلنة السمو ، سمو الإنسان أمام كل ضرورات الطبيعة ، وسمو الله أمام كل الأفكار ، وكل ألوان الحب ، وكل المشاريع ، وكل سلوكيات البشر .

إننا لا نعتبر أن هذا الدين هو ما هو عليه اليوم ، ولكن من خلال ما يحمله من إنسانية الإنسان ، وكل ما يمكن أن يقدمه أيضاً إذا استعاد ثقته الفعالة فى ديناميكية وحيه الأصلى ، وليس فى الحرفية المميتة التى استمرت خلال العشر قرون الأخيرة من تقاليده ، وذلك إذا لم نكتف بترديد بعض عبارات القرآن التى تنتقى دائماً منذ ألف عام ، ولكن إذا ربطنا الرسالة فى وحدتها العضوية الحية ، وأيضاً إذا لم نخلط بين القرآن وهو الكلام الإلهى للوحى والكلام البشرى للسُّنَّة، وإذا لم ننس أن كل آية منزلة إنما نزلت لترد على مشاكل حقيقية أثيرت عند شعب فى لحظة من تاريخه ، وأن القيمة الخالدة لهذه الآيات ليس من كونها صيغة مجردة ، ولكن من كونها إجابة حية على سؤال حى، وأنها تحتفظ لنا بعد أربعة عشر قرناً بقيمتها الخالدة من حثنا بالدعوة إلى اكتشاف إجابة حية من خلالها على الأسئلة الحية ليومنا، وإذا لم ننس كما يقول لنا القرآن نفسه : إن الله المخالف للحوادث

يتكلم لغة تتجاوز لغة البشر ، وإن لغة الأمثال جاءت فى القرآن لتوجه بحثنا عن الحقيقة وليس لتعطينا الحقيقة نفسها ، وكذلك إذا تذكرنا أن أصحاب النبى ﷺ وخلفاءه الراشدين وكبار فقهاء الماضى عرفوا أنهم مسئولون عن إيجاد حلول للمشاكل التى لم تكن فى مجتمع المدينة ، ولكنها ظهرت فى عهد الإمبراطورية الإسلامية القوية، وأن الحل ليس فى تكرير كلامهم ، ولكن فى تقليد مثالهم وسعيهم الخلاق والمسئول . لقد استطاعوا أن يحلوا مشاكل عصرهم بصراط الله المستقيم . إنهم لم ينقلوا لنا حلولاً سحرية تصلح فى أى مكان ، ولكن منهجاً لمواجهة ما يستجد .

وبهذا فقط يمكن للإسلام أن يعود من جديد حياً وعالمياً ومنفتحاً على الجميع كما كان فى مبدأه .

وهو كما هو باعتباره أكثر الأديان وحدوية ، وهو يمكن أن يذكر الناس فى عصرنا ليحميهم من الموت ، بالأبعاد المفقودة للإنسانية : وهى السمو والشمولية .

ففيه تتلخص الرسالة الأساسية التى يحتاجها العالم اليوم وهو على شفا الانهيار .

★ ★ ★

ماذا يمكن أن تكون مساهمة أوروبا فى هذا التناغم الإيمانى لكل العوالم ، وهى القارة الوحيدة التى لم يولد فيها أى دين ؟

لقد كان إسهامها الأساسى فى النقد وليس فى التقنية .

ليس لأن التقنية يمكن أن تتجاهل دورها ، فإن حكمة البشر

ورسالات الله تسمح لنا باستعمالها فى حياتنا بطريقة نقدية وانتقائية حتى تخدم رفاهية الإنسان وليس تدبيره .

ولكن التقنية لا توفر لنا أبداً إلا وسائل ، ونحن الآن نواجه خطر الموت من جراء كثرة الوسائل وغياب الغايات .

إن ما حملته أوروبا منذ « سقراط » حتى « كانط » ، ومن «كيركجارد » حتى « ماركس » ، ومن « نيتشة » حتى « هسرل » لم يكن يقيناً بل شكاً .

هذا الشك هو دليل الشعلة الأساسية الضرورية لكل يقين حقيقى، ولقد اكتشفت الإجابات على مشكلة معنى حياتنا ومعنى موتنا ومعنى الملحمة البشرية منذ قرون طويلة .

حدث ذلك فى الهند مع الفيدا والإبانشيدا وفى الصين مع الطوباوية ، فى إيران مع الزرادشتية ، وفى إفريقيا مع النظريات العظيمة لتفسير الكون ، وفى أمريكا مع « البوبل فوه » ، وفى الشرق الأوسط مع إبراهيم عليه السلام ، وأنبياء بنى إسرائيل ، والأناجيل ، والقرآن .

هذه الإجابات تمثلت فى أساطير وفى وحى إلهى منزل .

وقد استسلمت علوم الأساطير وحكم الشرق للإغراء العقائدى أن تتبع فى الوجود وتقول : ما هو ؟ ، ولكنهم أسهموا بهذه المساهمة العظيمة ، وهى : البحث عن الحقيقة العميقة بعيداً عن المظهر الخارجى : ووضع الإنسان فى حقيقته الثابتة ، واستخراج الغايات ومعنى وهدف السلوك الإنسانى من خلال ذلك ، واكتشاف مرجعية

يمكن من خلالها تقيم كل مشروع بشرى : وقد أرست «الماهايراثا» فى الهند وكتابها « بهجافادحيا » و« الرامايانا » ، وبطلها المثالى «راما» قِيَماً ظلت آلاف السنين .

وقد استبدلت الرسالات الإلهية العظيمة فى الشرق من التوراة وبقية كتب الأنبياء والأناجيل والقرآن حكمة البشر بوحى الله لتبين المعنى وترشد إلى الغايات وإلى الصراط المستقيم .

لقد زعمت الأساطير أنها معرفة أى شىء غير التوجيه « الشعرى » من أجل بناء عالم جدير بأبطالها الأسطوريين وآلهته ، وقد اعتقد الناس الذين تلقوا «الهداية » فى شكل « وحى إلهى » أنهم لن يستطيعوا أن يصلوا إلى البطل بقواه الخاصة ، ولكنه يمكن أن يتلقى إمكانية مبادرة الله الذى أنزل إليهم رسالته ، بينما فى الحكمة الهندية مثلاً ينطلق الإنسان من « الأنا الأصغر » حتى الوحدة السامية لمجهوده الشخصى دون وحى من الله يمد إليه يد المساعدة .

لقد عرف هذا الوحى ذو الغايات والمعنى ، وهو المنزل من عند الله المخالف للحوادث مردوده العقائدى مثله فى ذلك مثل الأسطورة، ولكن لم يعد المطلوب هنا أن يقبع فى الوجود ويفسره كما حدث فى انحطاط الفكر الأسطورى أو الزعم بالتحدث باسم الله بلغة البشر ، أو أن يجعل مهمة الإنسان الوصول إلى المطلق أو الخلط بين الكلام البشرى وكلام الله عَزَّ وجَلَّ .

وقد تراجعت البنوة بالقوة والإيديولوجيات عن نسكها على ثلاثة أصعدة .

فبالنسبة لليهودية نجد الأنبياء الكبار من بنى إسرائيل يعلنون الرسالة

العالمية ، عاموس حوالى (٧٥٠ قبل الميلاد) ، وأشعيا حوالى عام (٧٤٠ ق . م) ، وبعد ثلاثة قرون ونصف أى فى عام (٣٩٨) كان « القانون » يقرأ فى الترجمة العشائرية لقبيلة « أسدرا » ، وقبيلة «ننمى » ، وكان هذا القانون يقتضى التفرقة العنصرية ، وطلاق النساء غير اليهوديات ، ويكرس فى كل مراحله سلطة الحاخامات الكبار .

وقد عرفت المسيحية تراجعاً مشابهاً بعد حوالى ثلاثة قرون ونصف من ميلاد المسيح ، فقد كانت رسالة المسيح تتحدى كل ألوان الطبقية حين أعلنت مملكة الله رافضة أن يكون لقيصر السيطرة على أنفس البشر ومعلنة أن السمو والترقى إلى الله يمكن أن يتأتى ممن لا يملكون من قطمير ، وقد انقلب هذا المبدأ رأساً على عقب بناء على إرادة الإمبراطور الرومانى قسطنطين ، (وقد كان الحبر الأعظم لآلهة الوثنية حتى موته ، وتحول إلى المسيحية ، وهو على سرير الموت بفضل قسيس من أتباع أريوس) .

ولم يسلم الإسلام فى الجيل العاشر من هذا القانون اللعين الذى يذكرنا « بمندنهال » فى اليهودية ، فمنذ نهاية القرن الرابع الهجرى ظهر اتجاه « لإغلاق باب الاجتهاد » (وهو محاولة التفكير لتأويل وتفسير النصوص) ، وإذا لم يكن ذلك رسمياً ، فعلى الأقل أغلق باب الاجتهاد فعلاً ، بعد « الغزالى » (١٠٥٩ - ١١١١) ساد فى الإسلام كتب الحواشى والتفسيرات الحرفية والشكلية ، فيما عدا بعض « الصوفية » الذين باءوا بعداوة علماء الأصول .

وأصبح القرآن حبيساً خلف سور من التفاسير ، ولم يعد رسالة حية خالدة لأجيال الإسلام الجديدة : وكأن معناه قد حدد مرة واحدة

لكل الأجيال إبان حكم الأسرة العباسية ، فقد حاول الخلفاء العباسيون حين بدأت إمبراطوريتهم تتهدد من الداخل والخارج ، وحيث كان كثير من الناس فى البلاد التى دخلها الإسلام حديثاً يدعون الإسلام ليستفيدوا من نظام السادة الجدد مثلما فعل الإمبراطور قسطنطين فى المسيحية [1] .

ولم يكن باطن ومهمة الإيمان يشكلان معياراً من السهل إدراكه للتفريق بين المخلص والمتمرد ، فكان لا بد من معيار خارجى يمكن رؤيته ، « فالمسلم الصالح » لم يكن هو الذى يؤمن بالله ورسالة نبيه الداعية إلى اتباع هدايته سبحانه ولكنه كان ذلك الذى تمثل الأفعال الظاهرية التى يسهل تعلمها وتقنينها مطابقة لتقاليد ثابتة فى محظوراته كما فى أوامره .

لقد ظهر انتصار الحرفية والعقائدية لمدة ألف سنة فى تكرير آلى وحرفى يصيغ المدارس المتعلقة بتفسير القرآن .

وهكذا بدأ وانتشر انحطاط العالم الإسلامى ، والذى استمر لعشرة قرون ، وبهذا المفهوم من معاكسة النداء الإلهى فى القرآن الداعى إلى التدبر والبحث حكم على البلاد الإسلامية بالشكلية التى أوقعتها فى المراتب الدنيا لحركة التاريخ ، ووقفت عائقاً أمام صعود

---

(١) لقد ضمت الدولة العباسية بين مواطنيها كثيراً من الموالى غير المسلمين ، وكانت لهم حقوق تكفلها الدولة ، ولم يجبر أحد على الإسلام ، فكيف يقارن «جارودى » بين الدولة العباسية وبين ما فعله قسطنطين الذى ضم الناس بالقوة إلى المسيحية ، بل واضطهد المصريين لأنهم يخالفونه فى المذهب رغم أنهم مسيحيون . (المترجم) .

اليقين الإسلامى فى سلم العالم كما كان قبل أن يغط فى نوم عميق بسبب زعمائه السياسيين وعلمائه ، حيث كان العلم مرآة ولم يكن مشروعاً .

ماذا يمكن أن يكون دور الفلسفة الغربية فى نهضة إسلامية أصلية ، ليس نهضة سادر فى نومه ، بل نهضة مستيقظ ؟

إن هذه الفلسفة لا يمكن أن تعرف تحديد غايات لسلوكنا كما فعلت الأساطير والرسالات السماوية فى الشرق ، ولكنها يمكن أن تمنع عقائدية الأساطير والتراجع الإكليروسى للرسالات السماوية .

فليس لدينا عن « سقراط » إلا معرفة أسطورية لأن من شهود العيان على تعاليمه نجد « زيتوفين » وهو قائد عسكرى أحيل إلى التقاعد كان بليداً وخاملاً ، فلم يستلهم فكر ومنهج تعاليمه ، والآخر « أفلاطون » ، وكان عبقرياً جداً ، فلم يطبق منهجه على تساؤلات معلمه .

ويمكننا فقط من خلال إشاراته ومن خلال السخريات الديماجوجية « لأرسطو » نرى فيه « بذرة » الفلسفة الغربية ، فقد ضرب صفحاً عن الطبيعة وما وراء الطبيعة والميثولوچيا التى كانت فى الماضى ، ليبدأ فتحاً جديداً ، « لا أعرف سوى شىء واحد وهو أننى لا أعرف شيئاً » .

ومن خلال هذا المبدأ كان يناقش ويهزم أدعياء العلم ذوى المعرفة السقيمة من السوفسطائيين أمثال « بروتاجوراس » ، ومن القواد أمثال « لاش » ، ومن رجال الدين أمثال « يوثفرون » ، ولذلك فقد قاد

لكل الأجيال إبان حكم الأسرة العباسية ، فقد حاول الخلفاء العباسيون حين بدأت إمبراطوريتهم تتهدد من الداخل والخارج ، وحيث كان كثير من الناس فى البلاد التى دخلها الإسلام حديثاً يدعون الإسلام ليستفيدوا من نظام السادة الجدد مثلما فعل الإمبراطور قسطنطين فى المسيحية (١) .

ولم يكن باطن ومهمة الإيمان يشكلان معياراً من السهل إدراكه للتفريق بين المخلص والمتمرد ، فكان لا بد من معيار خارجى يمكن رؤيته ، « فالمسلم الصالح » لم يكن هو الذى يؤمن بالله ورسالة نبيه الداعية إلى اتباع هدايته سبحانه ولكنه كان ذلك الذى تمثل الأفعال الظاهرية التى يسهل تعلمها وتقنينها مطابقة لتقاليد ثابتة فى محظوراته كما فى أوامره .

لقد ظهر انتصار الحرفية والعقائدية لمدة ألف سنة فى تكرير آلى وحرفى يصيغ المدارس المتعلقة بتفسير القرآن .

وهكذا بدأ وانتشر انحطاط العالم الإسلامى ، والذى استمر لعشرة قرون ، وبهذا المفهوم من معاكسة النداء الإلهى فى القرآن الداعى إلى التدبر والبحث حكم على البلاد الإسلامية بالشكلية التى أوقعتها فى المراتب الدنيا لحركة التاريخ ، ووقفت عائقاً أمام صعود

---

(١) لقد ضمت الدولة العباسية بين مواطنيها كثيراً من الموالى غير المسلمين ، وكانت لهم حقوق تكفلها الدولة ، ولم يجبر أحد على الإسلام ، فكيف يقارن «جارودى » بين الدولة العباسية وبين ما فعله قسطنطين الذى ضم الناس بالقوة إلى المسيحية ، بل واضطهد المصريين لأنهم يخالفونه فى المذهب رغم أنهم مسيحيون . (المترجم) .

اليقين الإسلامى فى سلم العالم كما كان قبل أن يغط فى نوم عميق بسبب زعمائه السياسيين وعلمائه ، حيث كان العلم مرآة ولم يكن مشروعاً .

ماذا يمكن أن يكون دور الفلسفة الغربية فى نهضة إسلامية أصلية ، ليس نهضة سادر فى نومه ، بل نهضة مستيقظ ؟

إن هذه الفلسفة لا يمكن أن تعرف تحديد غايات لسلوكنا كما فعلت الأساطير والرسالات السماوية فى الشرق ، ولكنها يمكن أن تمنع عقائدية الأساطير والتراجع الإكليروسى للرسالات السماوية .

فليس لدينا عن « سقراط » إلا معرفة أسطورية لأن من شهود العيان على تعاليمه نجد « زيتوفين » وهو قائد عسكرى أحيل إلى التقاعد كان بليداً وخاملاً ، فلم يستلهم فكر ومنهج تعاليمه ، والآخر « أفلاطون » ، وكان عبقرياً جداً ، فلم يطبق منهجه على تساؤلات معلمه .

ويمكننا فقط من خلال إشاراته ومن خلال السخريات الديماجوجية « لأرسطو » نرى فيه « بذرة » الفلسفة الغربية ، فقد ضرب صفحاً عن الطبيعة وما وراء الطبيعة والميثولوچيا التى كانت فى الماضى ، ليبدأ فتحاً جديداً ، « لا أعرف سوى شىء واحد وهو أننى لا أعرف شيئاً » .

ومن خلال هذا المبدأ كان يناقش ويهزم أدعياء العلم ذوى المعرفة السقيمة من السوفسطائيين أمثال « بروتاجوراس » ، ومن القواد أمثال « لاش » ، ومن رجال الدين أمثال « يوثفرون » ، ولذلك فقد قاد

حملة نقدية لا هوادة فيها محاولاً أن يستخرج من غاياتهم الجزئية ما يمكن أن يكون غاياتهم السابقة .

كانت الأسئلة بالتأكيد من جانب سقراط ، بينما كانت الإجابات فيما بعد ربما من جانب أفلاطون .

لقد ظهرت الفلسفة الغربية فى صورة حية حين اهتمت بأسئلة سقراط ، وليس إجابات أفلاطون . . أو أرسطوطاليس .

وللأسف ، فإن المسيحية بعد عيسى المسيح ورثت الإجابات العقائدية لأفلاطون بفضل القديس « أوجستين » ، وإجابات سقراط بفضل القديس « توما الأكوينى » ولم تستعد تساؤلات سقراط حول الغايات إلا مع « كيرلجارد » فى بداية القرن التاسع عشر ، و«موريس بلوندل » فى فجر القرن العشرين .

وبين الاثنين كانت تسود أحياناً العقائدية ، أو يسود نفى العقائدية، ولقد ساد نفى العقائدية منذ عصر النهضة مع ادعاء الإنسان اغتصاب القوة الكاملة من الله ، وظهرت مع « ميكيايللى » (١٤٦٩ - ١٥٢٧) أول علمانية متطرفة فى المجتمع الذى لم تعد له غايات سامية، فلم يعد للدولة غاية إلا نفسها ، إرادة سوى القوة والازدياد.

★ ★ ★

وكان « كانط » يمثل الفلسفة الغربية فى أوجها لأنه استخرج منها الموضوع الرئيسى وهو النقد .

وفى كتابه « نقد العقل الخالص » ، ذلك العقل الذى يمكن أن يكون غارقاً فى أغلال مقولات أرسطوطاليس ومصادرات إقليدس ،

طرق باب نقاش الأفلاطونية وكل ادعاء عقائدى بالانكفاء على الوجود وتعريفه ، لقد كان اكتشافه الأساسى وأكثر اكتشافات الفلسفة الغربية خصوبة يمكن أن يصاغ ببساطة هكذا : كل ما أقوله عن الوجود ، وعن الإنسان ، وعن الطبيعة ، وعن التاريخ ، وعن الله كلام يقوله بشر . وكان هذا عقل الفلسفة النقدية المفكر ، وهكذا ، وعلى مستوى العقل النظرى جعل كانط «من الشيء نفسه » مصادرة، ضرورية ولا برهان عليها ، ولا يمكن تعريفها بتعريف معين !

وعلى مستوى العقل العلمى [١] ، ذلك الذى يتناول غايات وليس عللاً ، استخرج « كانط » مصادرات كل سلوك إنسانى : حرية ، خلود ، وجود الله ، وهذه القضايا يعتبرها ضرورية لا برهان عليها ، ولكنها ليست تعسفية ، ليست كمصادرة « إقليدس » أو « ريمان » .

- الحرية : أى إمكانية العلة الذاتية ، التى تسمو على الغايات الطبيعية ، ولكنها لا تنكرها ، وهذه تجربة يومية دائمة : تجربة الإنسان الذى يخضع لغاياته، ويكون أهدافه الجزئية ، وهذه حقيقة لا برهان عليها ، ولكنها ضرورية وبدونها لن يكون للمسؤلية أى معنى، ولا أى سلوك ، ولا أى أخلاق .

- الخلود : وهو إثبات وجود مرجعية كامنة فى اللانهائى منفصلة عن رغباتى كلها ، وعن كل مشاريعى الجزئية حتى تقيمها وتحكم عليها .

فإذا انغلقت حياتى فى حدودها ، وفى حدود الرغبة الجزئية ، فى

---

(١) كانط : نقد العقل العلمى ، الكتاب الثانى ، فصول ٤ ، ٥ ، ٦ .

المتعة والسلطة ، فإنها يمكن أن تكون فى نفسها غاية فى متناول الجميع قبل الموت ، ولذلك فلن تحاول إرادتى أن تتناغم مع هداية الله إلا حين تحاول تخطى حدود الموت .

- الله : وهو ما يسميه « كانط » الخير الأعظم ، وهذا أساس التناغم بين السعادة والفضيلة ، بين الطبيعة والحرية ، وهذا « الخير الأعظم » هو اسم آخر «لمملكة الرب » عند المسيحيين ، حيث العلية والغائية ، فهو سبحانه السبب الأول والغاية الأخيرة ، وهما يمثلان شيئاً واحداً ، فحينما تقول الله ، فإنك تؤكد أن للحياة معنى .

ويقول « كانط » : إن اليونانيين لم يستطيعوا حل هذه المشكلة الخاصة « بالخير الأعظم » ؛ لأنهم اعتقدوا أن الاستخدام البشرى للإرادة والعقل « كاف » ، وكان يجعلون من عقلهم المقابل للألوهية، فمنهم « الابيقوريون » الذين اختصروا الفضيلة فى السعادة، ومنهم « الرواقيون » الذين اختصروا السعادة فى الفضيلة .

وعندما يقول « كانط » بالاعتراف بجميع الواجبات كأنها أوامر إلهية ، فإنه بذلك يتجاوز أرضية كل التاريخ الفلسفى الغربى ، فهو يعترف بالغايات التى رسمتها الأساطير والرسائل الإلهية منذ قرون عديدة ، ولكن مع رفض ادعاء الإنسان أنه يتكلم ويتصرف باسم الله السامى الذى لا يمكن اختزاله فى إطار أخلاقنا ومنطقنا ، فالأساطير والرسائل حقيقية ، فهى ترسم لنا غاياتنا الأخيرة ، ولكنها ليست معارف ، بل مصادرات ضرورية ، ولكن لا برهان عليها .

إن « كانط » يمزق معتقداتنا الفاسدة ببرودة مشروطة .

ويشاركنا « كيركجارد » القلق ، وذلك فى تذكره لتضحية إبراهيم،

أى الإيمان فى كتابه « خوف واضطراب » ، يشاركنا القلق من مواجهة الذاتية والسمو ، فى مركز عمله كله ، ويستخلص هذه الصفة الخاصة بقضية الإيمان فوق كل عقل وكل قاعدة أخلاقية ، وهى: أن عمق الإيمان يعتمد على الشك الذى يساوره والذى يتغلب عليه الإيمان حتى يتصرف الإنسان بشكل مستمر يسمو فوق تصرف البشر .

ويعلن « كارل ماركس » وهو وريث آخر لـ « كانط » نهاية الفلسفة ، أى نهاية فلسفة الوجود لتبدأ فلسفة الفعل ، والتى لم يعد موضوعها تفسير العالم ، ولكن تحويله ، وحتى يصبح الإنسان هو الفاعل والمحرك لهذا التحول ، يجب عليه أن يتحرر من «الخزعبلات» و« الأصنام » التى أفقدته ذاته ، فليتحرر أولاً من خزعبلات عمله الخاص ، والذى انسلخ منذ فجر الرأسمالية من كل ما هو إنسانى : فيحدد غاياته ، وينظم وسائله ، ويتصرف فى ثمرته، إن رأس المال هو النقد العسكرى لهذه الخزعبلات الرائعة .

وقد نظم « نيتشه » مقطوعة فى حدود النظرية النقدية لـ « كانط »، وكان هذا قلباً لكل القِيَم التى تعوق الحياة فى مسارها الخلاق ، فهو لا يرشدنا إلى الإيمان ولا إلى حقيقة ثابتة ، ولكنه يدعونا إلى تخطى كل ألوان اليقين الزائفة والتى صنعتها لنا الأصنام ، فنقد « كانط » هنا يظهر فى أبهى صورة كالآتى : «كل ما يبدو حقيقياً يجب أن يمر على الغربال » ، وقد كتب « نيشته » فى كتابه «المعرفة الجالية » (جـ ٣ ص ٢٩٦) :

« فى أى شىء تعتقد ؟ فى ذلك : فى أنه يجب أن تحدد من جديد

وزن كل شيء » ، وفى الفصل الأخير يقول : « إن أفول نجم الأصنام تحت عنوان : المطرقة تتكلم » ، ويعلمنا نيتشة : « أن تكسير الأصنام هذا حسب بيت من الشعر « ليوشكين » (تكسر طرقات المطرقة الزجاج وتضطرم النار » .

إن الإله الحقيقى لا يخاف مطرقة لكسر الأصنام ، ولا الشك المزدوج « لكيركجارد » ، ولا النقد الدقيق « لماركس » المعروف «بأفيون الشعوب » ، ولا « زرادشت » ولا « نيتشه » .

ولا بد أن نستفيد من الإله الحقيقى فى دفع نقد « كانط » من خلال كيركجارد وماركس ونيتشة لنحرق الحثالات الأخيرة لأصنامنا فى أتوناتها الأخيرة ، وأن نعيد إحياء مبدأ الأخلاق مع « روستكو فيسكى» ، ومبدأ العلم مع « أينشتين » لنستعيد الفكر فى وحدته مع الحياة ، وفى العلوم والتاريخ ، وهو فى طريقه إلى الصنع بفضل السياسة .

★ ★ ★

إن أعظم درس فى نهاية الألفية الثانية هو أن أى علم وأى سياسة لا يمكن أن تسمح لنا بالهروب من الموت إذا تجردت من البعد السموى للإنسان ، أو تجردت من فكرة الإله .

إن خلاصة حياتى وانطباعى عنها تتلخص فى الآتى : خطة عمل من أجل قراءة العالم والإنسان وتاريخه مكتشفاً منها معنى التصرف لتغيرها حسب الرسالة التى بعثها الله إلى عباده .

وشىء قليل أن أتعلم خلال حياة كاملة كيف أفك رموز هذه

الرسالة ، وهذه الآيات التى يتوجه الله إلينا بها من خلال الطبيعة كلها ، والتاريخ الإنسانى ورسالات الأنبياء عليهم السلام .

إن هذا الكتاب ليس له هدف سوى المساهمة فى وضع ألف باء لعالم لم يعد يعرف كيف يقرأ « الآيات » تلك اللغة التى يتحدث الله بها .

فبالنسبة للبعض تعتبر الأشياء مثلها مثل الكلام ليس لها معنى إلا فيما يخدم مصالحنا : فهذه ليست إلا آلات للمعالجة أو ألعاب الحواه.

وبالنسبة للآخرين فإن « فوق الطبيعى » (الإله) موجود ، ولكنه لم يعد محرك الطبيعة والحياة والتاريخ ، إنهم يعتقدون أنهم يمكن أن يأسروه بالعقائد والشعائر أو الأساطير ، والكلام الغير محدد سلفاً دون البحث عن المعنى الجديد والخالد والخلاق دائماً .

إننى أريد أن يعتبر هذا الكتاب « يوميات سفينة » فى نصف قرن من البحوث الحثيثة لاكتشاف خطة عمل يمكن أن تكون مقدمة لقراءة الكتب المقدسة ؛ لأن الإنسان لا يكون إنساناً بمعنى الكلمة إلا عندما يؤمن بالبعد السموى ، أى عندما لا يعتبر نفسه فقط كمقاطعة فى طبيعة يجب أن يحول الوسائل لتخدم الغايات ، ولكن كطليعة لطبيعة خلقها الله وتستمد معناها ووحدتها من هذا الخلق ، والإنسان إذاً هو الوحيد من بين مخلوقات الطبيعة الذى له تميز الحرية والمسؤلية أن لا يخضع فقط للقانون الإلهى وفقاً للضرورة ، ولكن وفقاً للاختيار مع المخاطرة بالخطأ والجريمة ، بل مع إمكانية تلقى الوحى

واكتشاف معناه والبحث عن الهداية فيه من أجل سلوكه فى الحياة ، وهذا هو البعد السموى للإنسان .

فحياته تدور حول هذه القراءة للرسالة .

وهذا أكثر الأشياء التى علمها لى الإسلام قيمة .

إن حياتى لا قيمة لها إن لم يتحدث الله فيها .

وسلوكى أفضل من نفسى ، فهو يصبح سلوكاً نقياً ، وليس شهادة على معنى التاريخ والمشاركة فى استمراره وهو يصنع .

وهذه الملاحظات تأتى من خارج سفر التكوين فى الكتب المقدسة، ولكنه لا يستعلى على القرآن .

ولقد قلنا كيف أن الخيال الشعبى ترجم « البشارة » (إنجيل عيسى) إلى معجزات ، وكل ذلك ممكن فى سياق الإيمان .

لقد جعل إيمان الحواريين الساذج من النبى ساحراً ، فموسى حول العصا إلى حية كما يرمى الفقير الهندى حبلاً فى السماء ويصعد عليه، كما أن عيسى جعل العجزة يمشون وأحيا العزير من بعد الموت، مع أنه قال غير مرة بنفسه : « إن إيمانك هو الذى أنقذك ، أى أنه لم ينقذ على طريقة انتشال الغريق : إنه أحيا قوة الإيمان » .

ليست هناك معجزة منقطعة تماماً مع « قوانين الطبيعة » إلا بالنسبة لأولئك الذين يفهمون الطبيعة فهماً ضيقاً خاصة «الطبيعة البشرية»[1]،

---

(١) هذا رأى غريب لجارودى ، فالمعجزة كما عرفها علماء التوحيد « أمرٌ خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة تصديقاً لرسالته » ، ولذلك فإن كل =

وهؤلاء يجعلون البعد السامى للإنسان شيئاً مجرداً ، وكان مؤسسو الطب الإسلامى « الرازى » ، أو « ابن سينا » كانوا يمارسون من عشرة قرون « علم النفس الجسدى » قبل أن يعطى هذا الاسم الضخم والساخر فى محاولة لمحو الثنائية الخطيرة للنفس والجسد ، وقد اعتبروا الإنسان كلاً متكاملاً ، ولم يفكروا أنهم يمكن أن يصلحوه ويركبوه ، وكأنه مركبة ، تصلح بقطع الغيار ، ولذلك كانت كل الوسائل الروحية محل استخدام : من الصدمات النفسية حتى رفع الروح المعنوية أو التناغم الموسيقى ، وذلك لعلاج الأمراض المسماه «بالنفسية » ، ويكتشف المرء اليوم بعد عشرة قرون الدور الذى يمكن أن تلعبه « الروح المعنوية » فى شفاء السل واندمال الجروح ، وكذلك النوم الذى ينفع فى شفاء بعض الأمراض الجلدية ، وفى فرجة من هذه النظرات المشوهة للإنسان يمكننا أن نجد خرافات جسيمة لأن المرء لم يعرف القوة الحقيقية للإيمان .

ونفس النظرة الضيقة عن الإنسان منعت من فهم الأحداث الأكثر تحويلاً فى السياسة وفى تاريخنا .

يلزمنا المفهوم القديم للقائد حتى لا نقيم علاقات القوة إلا من خلال « قوة النار » وقوة « المنطق الرمزى » .

إذاً كيف استطاع « غاندى » أن يتحدى أكبر الإمبرياليات فى عصره والجيش الإنجليزى فى الهند ؟ كيف استطاع « ماوتسى تونج » أن

= المعجزات المذكورة فى القرآن عن موسى أو عيسى أو إبراهيم عليهم السلام يجب الإيمان بها . (المترجم) .

يحقق نجاح الثورة الصينية ضد القوة الغاشمة « لسادة الحرب » من أسرة « تشانج كاى تشك » ، ومسانديهم من المستعمرين الفرنسيين والولايات المتحدة ؟

كيف استطاع الشعب الفيتنامى أن يهزم فرنسا ، ثم أمريكا ، فى علاقة متناغمة بين الفرد والمائة ، ثم الفرد والألف من أجل القوة المسلحة ؟

كيف استطاع شعب خاوى الوفاض فى إيران أن يقهر « القوة الخامسة فى العالم » ؟

لا يمكن أن نفهم تصاعد قوة الإيمان أو حتى الثورات دون أن نضع فى اعتبارنا ما أسماه « لينين » « العامل الذاتى » ذلك العامل القادر على قهر منظومة « الشروط الموضوعية » .

لا يمكن للمرء أن يفهم شيئاً عن انحطاط الأديان أو الثورات إذا لم يضع نقطة انحسارها فى تلك اللحظة التى تريد فيها السياسة أن تستعمل تلك القوة المسيحية للإيمان وتوطنها فى خدمة طموح محدود: وهى تلك اللحظة التى سلب فيها « قسطنطين » قوة الضعفاء ليجعل منها قوة حربية وسياسية ، وأداة للإمبراطورية : « إنك ستفوز بفضل تلك الآية » ، وهى آية الصليب ، وهكذا غيرت المسيحية مسارها .

وهى نفس اللحظة التى استعمل فيها « تيودور هرتزل » ما أسماه «القوة الأسطورية » للعودة من أجل قيام « الدولة اليهودية » لإله إسرائيل ، وهى تلك اللحظة التى ركز فيها « نابليون بونابرت » فعالية

الثورة الفرنسية ، وأصبح « روبسبير على حصان » ليس ليفتح عهد جديداً للبشرية ، ولكن ليبدأ هيمنة أمة .

وهى نفس اللحظة التى حول فيها « ستالين » ثورة أكتوبر إلى عقيدة ليعمل منها ليس مستودع آمال لكل المقهورين ، ولكن شكلاً جديداً من أشكال القهر .

وفى كل حالة تكون قوة صعود الإيمان محصورة فى شبكة علاقات القوة لتخدم غايات نسبية ، « غايات بشرية » بالمعنى الضيق والمحدود للكلمة ، ولم تعد أملاً مسيحياً ممغنطاً بقِيَم مطلقة .

إن أى دين وأى وحى لا يمكن أن يظل حياً إلا إذا أيقن بنسبيته ، و« بعدم كفايته » بالنظر إلى المقدس ، أى القِيَم المطلقة ، « ذلك الاكتفاء » الذى يعوقه عن أن يكتفى بالتاريخ والقوة ويجبره على مواصلة الانفتاح على اللانهائى [١] .

لقد افتضح أمر هؤلاء الذين يريدون أن يحولوا النار والجنة إلى آلات : والأديان إلى وعد بعالم آخر ، أو الثورات التى تضحى باليوم زاعمة أنها تضحية من أجل الغد ، وأن الإنسان يمكن أن يكون فى غاية الكمال والاكتفاء .

---

(١) إن القرآن يأمرنا أن نسأل أهل الذكر فيما لا نعلم : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ ، فالدين الإسلامى منفتح علمياً على غيره ، ولكن روحياً وأخلاقياً فيه الكفاية : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (المترجم) .

كان « برتولد برخت » يقول : « يجب أن نغير العالم ، ثم نغير بعد ذلك هذا العالم المتغير » .

وهذه تعاليم كل الصوفية ، فمنذ عشرة قرون يقال : إن « رابعة العدوية » كانت فى نزهة ومعها فى يد خاتم من الماء ، وفى الأخرى مشعل ، كان الأول لإطفاء نيران جهنم ، والثانى لإحراق ملذات الجنة ؛ لأنه كما كانت تقول : «من الإساءة إلى الله أن نتصرف طمعاً فى مكافآت أو خوفاً من عقوبات ، وليس بدافع حبه والتمتع بالخضوع لإرادته » .

وبعد ذلك بثمانية قرون أوضحت « القديسة تريزا دافيلا » نفس الحقيقة الأبدية فى قصيدة ختمتها بهذه الصيحة ، صيحة الإيمان الحقيقى :

« حتى وإن لم يكن ثمة جنة أو جحيم .

أعرف أننى يا رب لن أزال بك أهيم .

فحبى لك واجب بقدر ما هو نعيم مقيم .

فلا تمنحنى شيئاً وإن جأرت إليك بالدعاء .

فحبى لك ليس بحاجة إلى أى رجاء » .

فحكم الله عند المتصوفين ليس بعد الموت ، وليس فى شكل مكافأة أو عقوبة بعد الفعل ، فالمكافأة والعقوبة ، والجنة والنار موجودون فى كل فعل ، كما أن الله عَزَّ وجَلَّ حاضرٌ فى كل شىء ، وهذا الإيمان ينقلنا إلى ما بعد الموت ، وهو حياة أبدية فى كل أحداث الأيام ، وهو يحمل فى نفسه حكم الله ، فى خلود اللحظة ، فجهنم

هى مخالفة إرادة الله ، والفردوس هو الخضوع لإرادته ، وكل ذلك فى كل لحظة وخارج إطار الزمن ، ففى الحياة الإلهية ليس هناك قبل أو بعد وليس هناك فعل متبوع بعقوبة أو مكافأة ، فالفعل فى نفسه يحمل هذه وتلك .

وكان « آلان » أستاذى فى مدرسة « هنرى الرابع » يقول : « إن الفضيلة بلا مواساة » ، وهذه اللاإرادية التى يصعب علاجها علمتنى أحد أعمق حقائق الإيمان .

كان ينقصه الإيمان فقط . . . لا بل كان ينقصه كل شىء :

ينقصه معنى الانفتاح على كل ما هو غير « الأنا » ، ولم أكن قد أحببته لأنه لم يكن قد علمنى هذه اللاإرادية ، وحتى أتبعه كان يجب علىَّ أن أتخلى عن الإغراء العالمى « بالاكتفاء » .

فمناهضة لكل ألوان تزمت « العلمانية » و« الإكليروسية » ، لا بد من إبطال دعاوى « الاكتفاء » بالانغلاق العبثى على النفس وعلى المعتقدات .

« أدخِل اللامتناهى » هكذا صاح السرياليون عشية السقوط فى العدمية بعد الحرب العالمية الأولى ، وسقوط كل القِيَم التقليدية ، وحتى يكسروا جدار العرقية الأوروبية لدينا ، فإن « تشوينج - شو » والرسام « سونج » ، و« شانكار » ، و«ناجارجونا» ، و« العطار »، و« الرومى » ، و« ابن عربى » ، و« إقبال » : أدخلوا فى مدارسهم وحياتهم كل ما كان يجهله الغرب ، بينما سيكون كل «فلاسفة» الغرب ضحايا مقياس صارم لأهميتهم ، ففى هذا السياق العالمى سيظهر بفضل أخوة العظمة أن « مترايكارت » ، و« سان چون » ،

و« لاكروا » ، و«شكسبير» ، و« ديستوفسكى » ، و« توماس إليوت»، و« سان چون بريس » أو « كازانتسكنر » : أكدوا على أهمية معنى حياتنا وموتنا ، بينما كانت كل فلسفة معلمينا تزعم إنها ستجعل من الفلسفة « خصوصية » ، كما جعل علماء اللاهوت المدرسيون من المسيحية خصوصية ، وكما أراد « فقهاء الشريعة » فى الإسلام قديماً أن يجعلوا من الله خصوصية .

كما كتب « محمد إقبال » أن « الإيمان الذى لا يعد فى أبهى مظاهره عقائدية ولا كهنوتية ولا شعائرية هو وحده القادر على إعداد الإنسان لتحمل المسؤولية أكثر مما تفرض عليه العلوم والتقنيات الحديثة» .

« وما هو إلا أن يصل الإنسان إلى نظرة جديدة عن أصله ومستقبله حتى يستطيع أن ينتصر على مجتمع تطحنه منافسة لا إنسانية وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية » .

فلنقاوم اليوم ، ولنحيا حياة جديدة بشرية بمعنى الكلمة ، أى حياة إلهية ، وهذا يستلزم علماً يعرف حدوده وسياسة تعرف غاياتها ، وإيماناً يعرف حقائقه .

لأن الإنسان لن يكون إنسانياً إلا إذا استحضر فى داخله وجود الله.



محتويات الكتاب

الإسلام

والقرن الواحد والعشرون

* لا يكفى أن نؤمن بوحدانية الله، بل لابد أن نجاهد من أجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله على تلك الأرض المتنافرة ويكون جهادنا "فى سبيل الله" وعلى جميع المستويات من الإقتصاد إلى الأخلاق ومن السياسة إلى العلم حتى الفنون، وهذا هو المعنى الشامل للجهاد، والذى يفسر غالباً خطأ "بالحرب المقدسة" وهو مفهوم شرحى لعبارة "الجهاد فى سبيل الله" ومعناه الشامل أن نجاهد أنفسنا أولاً لنحقق وحدة حياتنا الباطنة، ولنملك أنفسنا، ثم نجاهد فى جميع مجالات الحياة الإجتماعية دون أن نُحرم الكفاح والمواجهة ليس من أجل نشر الإسلام حيث "لا إكراه فى الدين"، فالإسلام دعوة ليس فيها غموض ولكن نجاهد من أجل مقاومة كل اضطهاد يتعرض له الذين يريدون أن يعيشوا فى ظل هداية الله"

* فلنقاوم اليوم ولنحيا حياة جديدة بمعنى الكلمة أى حياة إلّهيه وهذا يستلزم علماً يُعرف حدوده وسياسة تُعرف غايتها، وإيماناً يُعرف حقائقه لان الإنسان لن يكون إنساناً إلا إذا استحضر فى داخله وجود الله.

روجيه جارودى

الدار العالمية للكتب والنشر